سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

(8)

فتح مكة وغزوة حنين

والطائف

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود بخيت ،.

السيرة النبوية لكل الأعمار(فتح مكة وغزوة حنين والطائف)/ رجب محمود بخيت.-

ط1.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

96 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع : 1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة المحتويات

فتح مكة

التزمت قريش بشروط صلح الحديبية حوالي السنة ونصف السنة، ثم وقعت في خطأ كبير حين أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول ص والمسلمين،وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة، سكنت بعد صلح الحديبية؛ ودخلت خزاعة في عهد النبي - ص - ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، فلما كانت مؤتة خُيَل لقريش وحلفائها أن المسلمين قد قضي عليهم، ظن بنو بكر أن الفرصة سانحة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة، وحرضهم على ذلك رجال من شباب قريش لم يقدروا الموقف تقديراً صحيحًا، وقد أعانت قريش بكرا بالخيل والسلاح والرجال(1)؛ وقالوا: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فعلوا ذلك للضغن على رسول اللّه ص (2). وبيتت بنو بكر خزاعة ذات ليلة وهم على ماء لهم يسمى الوتير، فقتلوا منهم، وهزموهم حتى ألجأوهم إلى الحرم، وإلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي بمكة (3)، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها(4)، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك!

---

1) أوضح موسى بن عقبة أ: ن من بين أشراف قريش الذين أعانوا بكرا على خزاعة: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإعانة كانت بالسلاح والرقيق. ابن كثير- البداية والنهاية 4/ 313، من رواية موسى دون إسناد، وانظر ابن حجر- فتح الباري 8/ 6.

2) ابن هشام،السيرة 2/ 389 ،الواقدي مغازي 2/ 784

3) ابن هشام، 4/ 554 ،ابن كثير، البداية ،4/ 278.

4) انظر، الواقدي (2/781-784).

فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم(1)،وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله - ص - في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ص وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يارب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتم وُلدا، وكنا والداً ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مدداً

فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا

1) السيرة النبوية لابن هشام (554/4).

في فيلق كالبحر يجري مُزبدا إن قريشاً وأخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في (كَدَاءِ) رُصَّدا

وزعموا أن لست أدعوا أحد وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجّدا وقتلونا ركَّعا وسجدا

فقال النبي - ص -: نُصرتَ يا عمرو بن سالم(1)! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب. ولما عرض السحاب من السماء قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب(2).

وجاء في رواية : أن رسول الله - ص - بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أتُدوا خزاعة(3) وإلا أوذنكم بحرب فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سّبَد، ولا لَبَد(4)،

1) السيرة النبوية لابن هشام (44/4).
2) السيرة النبوية لابن هشام (44/4) ؛ البداية والنهاية (278/4).
3) أي تدافعوا دية قتلاهم.
4) السَّبد الشعر واللَّبد الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.

ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب(1)، وفي هذا دليل على أن رسول الله - ص - لم يفاجئ قريشاً بالحرب وإنما خيرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب(2).

وليس هناك من شك في أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره، وندمت على فعلها له، ولذلك فإنها بادرت إلى إرسال أبي سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده ولعل المدة كانت سنتين، فكانوا يريدونها عشراَ، ولقي أبو سفيان بديل بن ورقاء في الطريق، وبالرغم من أن بديلًا أنكر أنه لقي محمدًا فإن أبا سفيان عرف أنه كان بالمدينة، ومن أجل ذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي ص.

ولم تستقبله ابنته استقبالا حسناً، ولما لقي النبي - ص - وكلمه في العقد وإطالة مدته لم يرد النبي - ص - عليه، ورفض كبار الصحابة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي أن يساعدوه، بل لقد أغلظ له عمر الجواب

---

1) انظر: الواقدي (2/781-784).
2) التاريخ الاسلامي (7/164).

وقال: "أنا أشفع لكم إلى رسول الله!! ص و الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به".فانصرف محنقًا يفيض أسى مما لقي من هوان، وعاد إلى مكة يحمل لقومه نتيجة سفارته الفاشلة، وقد أدرك أن الموقف تحول نهائيّا إلى غير صالح مكة، وأخذ رجال مكة يتناقشون في موقف أصبح ميئوسًا منه(1).

ومما يذكر عند نزوله في المدينة دخل على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين- وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر(2).وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ستة عشر سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة(3)، وهذا ما كان يتصف به الصحابة بمن تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين،

1) ابن هشام ، 3/ 12- 14. ابن كثير ، 4/ 280، 281.
2) ابن كثير،4/ 280،281.
3) معين السيرة،ص395.

وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغفي إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنوياته إلى النماء والحيوية(1).

قم إن النبي - ص - لم ير أن يترك لهم فرصة حتى يتجهزوا للقائه؛ لذلك أمر فنادى بالتجهز فاحتشد له جيش قوي لم تشهد الجزيرة مثله من قبل عدة ونظامًا فلقد بلغت عدته أكثر من عشرة آلاف، وبلغت قوة الفرسان فيه أكثر من ألفين وإذا كان جيش الأحزاب في موقعة الخندق قد بلغ مثل هذا العدد أو نحوه فإنه كان مفكك القيادة متنازع الأهواء، أما هذا الجيش فكان تحت قيادة موحدة حازمة وكان هدفه واضحًا محددًا،ولم تكن القبائل التي اشتركت فيه مدفوعة بالكسب المادي مأجورة كما كانت حال غطفان في يوم الخندق. ولما اكتملت عدة الجيش أعلن النبي - ص - أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن سيرهم على نبأ وسأل ربه قائلا: «اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها» (2).

---

1) التاريخ الاسلامي (171/7،170).
2)ابن كثير- البداية4/ 283،ابن هشام ،السيرة 2/ 389 بإسناد حسن من حديث الزهري عن عروة عن المسور.

وهذا شأن النبي - ص - في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.وتحرك الجيش الكبير في عدته التي لم تشهدها الجزيرة من قبل عدة وسلاحًا ونظامًا وحسن طاعة، يملأ نفوس رجاله الإيمان بأن لا غالب لهم من دون الله، وسار محمد على رأس هذا الجيش وكل تفكيره أن يدخل البلد الحرام من غير أن يريق قطرة دم واحدة(1).

إن حركة النبي - ص - في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب سواءَ كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه - ف -، فعندما قرر- ف - السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة.فقد أخذ النبي- ص بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر ا أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشةلأحب نسائه إليه،

1)ابن هشام،4/ 14.

فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله بدليل أن أبا بكر الصديق ا عندما سأل ابنته عائشة لعن مقصد الرسول ص قالت له: ما سمّى لنا شيئاً وكانت أحياناً تصمت. وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقاصده ف(1). ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة(2).

وكان النبي ص قد بعث قبل مسيرة مكة سَرَية مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله ص بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سَرَية إلى بطن إضَم، ليظن ظان أن رسول الله ص توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بتلك الأخبار..فمضوا ولم يلقوا جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبن) حتى لقوا النبي ص بالسّقيا(3).وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار النساء عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها(4).

1) انظر: البداية والنهاية (282/4)؛ شيت خطاب، الرسول القائد ، ص333، 334.
2) القيادة العسكرية في عهد الرسول ، ص396،395.
3) الطبقات الكبرى لابن سعد (132/2).
4) القيادة العسكرية، ص498.

وقد بث النبي ص رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش: وأخذ رسول الله ص بالأنقاب(1) فكان عمر بن الخطاب ا يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه...إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة(2).

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين وقد استفاد الرسول - ص - من حدِّه النافع لصالح المسلمين وأبطل مفعول الحد الآخر بإتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعدادته ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة(3). وعندما أكمل النبي - ص - استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطبن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي - ص - إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه - ف - عن طريق الوحي على هذه الرسالة فقضى ف على هذه المحاولة وهي في مهدها، عن عليّ بن أبي طالبا قال: بعثني رسول اللّه ص أنا والزّبير والمقداد، قال:انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها» فذهبنا تعادى (4) بنا خيلنا حتّى أتينا الرّوضة فإذا نحن بالظّعينة. فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثّياب. فأخرجته من عقاصها (5)،

1) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.
2) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (796/2).
3) القيادة العسكرية، ص365.
4) تعادى: أصلها تتعادى أي تتسابق.
5) عقاصها: ضفائر شعرها جمع عقصة بمعنى ضفيرة.

فأتينا به النّبيّ ص ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممّن بمكّة يخبرهم ببعض أمر النّبيّ ص ، فقال النّبيّ ص: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل عليّ يا رسول اللّه، إنّي كنت امرأ من قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكّة فأحببت إذ فاتني من النّسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني. فقال النّبيّ ص: «إنّه قد صدقكم» فقال عمر: دعني يا رسول اللّه فأضرب عنقه. فقال:إنّه شهد بدرا، وما يدريك لعلّ اللّه عزّ وجل اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ونزلت فيه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [سورة الممتحنة:1]. على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم،

وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن(1). إن ما قام به حاطب أمر عظيم ولذلك نزل القرآن الكريم، يوجه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعله نحو أعداء دينهم، كما أن النبي - ص - عامل حاطب معاملة رحيمة تدل على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم، لقد جعل - ف -من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه، وهذا منهج نبوي حكيم، فلم ينظر النبي - ص - إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة ، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز دينه، فوجد أنه قد شهد بدراً، وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة، والجهاد، والعلم، والتربية(2) .بدأت قوات الفتح مسيرتها المظفرة من المدينة في العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة (3)،

1) في ظلال القرآن (358/6).
2) التاريخ الإسلامي للحميدي (176/7).
3) مسلم،شرح النووي 3/ 176 (حديث 113- 114).

بعد أن استخلف النبي ص على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري(1)، وكانوا صياما فواصلوا الصوم حتى بلغوا كديدا فأفطر النبي ص وأفطر الجيش(2)، وقد وصل المسلمون إلى مرّ الظهران وعسكروا هناك دون أن تصل قريشا أية أخبار عن تحركهم مما يدل على نجاح المسلمين في تعمية الأخبار (3) وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسُرّ ف وكان العباس قد أسلم قبيل غزوة خيبر (4). وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة، إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ص (5).وفي الطريق إلى مكة، قدم بعض زعماء قريش إلى النبي ص فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عم أبيه وأخوه من الرضاعة أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة (6)

---

1) ابن هشام ،السيرة 2/ 399، ابن حجر، المطالب العالية 4/ 248،الحاكم ،المستدرك 3/ 44،وانفرد ابن سعد- الطبقات 2/ 135 بأنه عبد الله بن أم كلثوم،معلقا.

2) البخاري ،الصحيح 5/ 185، فتح الباري 4/ 180- 181 (حديث 4275)،مسلم ،الصحيح 2/ 784 (حديث 1113) وفي رواية ثانية عند مسلم: أن الإفطار كان بكراع الغميم (الصحيح حديث 1114) والموضعان متقاربان.

3) صحيح مسلم ،شرح النووي 3/ 176 وقد وردت روايات صحيحة بخروج بعض زعماء قريش يتحسسون الأخبار وإلى أنهم رأوا نيران المسلمين وتعجبوا من كثرة الجيش وأن أحدهم قد ظن أنهم خزاعة، ابن حجر، المطالب 4/ 244- 248.

4) أحمد ، المسند، الفتح 21/ 122، الصنعاني، المصنف 5/ 466، وأخرجه النسائي،ابن كثير، البداية والنهاية4/ 217. وقد وردت روايات ضعيفة تبين إسلامه قبل غزوة بدر الكبرى،ابن سعد ، الطبقات 4/ 10- 11، بل إن إحدى الروايات جعلت إسلامه قبل الهجرة إلى المدينة، ابن سعد- الطبقات 2/ 31 بإسناد منقطع وفيه الواقدي، ومع التأكيد على ما قدمه الصحابي الجليل العباس بن عبد المطلب عم النبي ص من خدمات جليلة للإسلام قبل إسلامه وبعد ذلك حيث كان عينا للرسول صلّى الله عليه وسلّم على قريش وملاذا للمستضعفين من المسلمين في مكة قبل أن يسلم، فإن أسره في معركة بدر مع المشركين ومطالبة النبي ص إياه بأن يفتدي نفسه من الأسر تقطع بعدم دخوله الإسلام حتى ذلك الوقت. ويترجح أنه كتم إسلامه في الفترة التي أعقبت غزوة خيبر لمقتضيات مصلحة المسلمين.

5) محمد السيد الوكيل ، تأملات في السيرة النبوية، ص254.

6) الحاكم ، المستدرك 3/ 43- 45، ابن هشام ،السيرة 2/ 400، الطبري،تاريخ 3/ 50،البيهقي ، دلائل النبوة 5/ 27- 8، الهيثمي، مجمع الزوائد 6/ 164- 167، ونقل مسلم في صحيحه 2/ 395.

فلقيا رسول الله بثينة العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال:لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال؛ فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله ص أو لآخذن بيد ابني هذا ، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ص رق لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيارن أظلم ليله فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي

فقل لثقيف لا أريد قتالكم وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي

هداني هاد غير نفسي ودلني   غالى الله من طردت كل مطرد

أفر سريعاً جاهداً عن محمد   وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد

هم عصبة من لم يقل بهواهم   وإن كان ذا رأي يلم ويفند

أريد لأرضيهم ولست بلا قط   مع القوم ما لم أهد في كل مقعد

فما كنت في الجيش الذي نال عامراً   ولا كلَّ عن غير لساني ولا يدي

قبائل جاءت من بلاد بعيدة   توابع جاءت من سهام وسردد

وإن الذي أخرجتم وشتمتم   سيسعى لكم امريء غير مقدد

قال فلما أنشد رسول الله - ص - إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله ص في صدره، فقال: أنت طردتني كل مطرد (1). وكان أبو سفيان بن الحارث يهجوا بشعره رسول الله - ص - كثيراً، وأما عبد الله ابن أمية فقد قال لرسول الله - ص - : فو الله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك(2).ومع فداحة جرمهما فإن النبي ص عفا عنهما وقبل غدرهما، وهذا مثال عالفي الرحمة والعفو والتسامح ولقد كفّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ص وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين(3).

1) الحاكم ،المستدرك 3/ 43- 45،ابن هشام ،السيرة 2/ 400، الطبري ، تاريخ 3/ 50، البيهقي ، دلائل النبوة 5/ 27- 8، الهيثمي ،مجمع الزوائد 6/ 164- 167،ونقل مسلم في صحيحه 2/ 395.
2) ابن هشام ، (295/1-300).
3) التاريخ الإسلامي (182/7).

إسلام أبو سفيان :

وتابع رسول الله - ص - سيره حتى أتى مر الظهران(1)، فنزل فيه عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب(2). قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ص مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله ص يستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها(3) الحرب، فقال: أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها..وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال العباس قلت: ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله ص في الناس واصباح قريش والله، قال فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذ البغلة حتى أتي بك رسول الله ص أستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به،

---

1) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ 22 كلم.
2) معين السيرة،ص387؛ الطبقات لابن سعد (135/2).
3) حمشتها الحرب: أحرقتها.

كما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله - ص - وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله - ص -، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال قلت: يا رسول الله إني قد أجرته...فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فو الله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فو الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله - ص - من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال - ف - : أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فلما أصبح غدوت به فلما رآه رسول الله - ص - قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس:ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فلما ذهب لينصرف قال رسول الله يا عباس: احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. قال فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله - ص - ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال يا عباس من هذا؟ فأقول: سُليم؟ فيقول : مالي ولسُليم، ثم تمر به القبيلة ، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول مالي ولمزينة...حتى مر به رسول الله ص في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ص في المهاجرين والأنصار   قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن قال: قلت: النجاء إلى قومك(1).

إنها النبوة تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي - ص -

1) صحيح السيرة النبوية، ص518،519، 520.

إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله - ص - من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض(1).

لقد تعمد النبي - ص - شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة حيث أمر رسول الله - ص - بإيقاد النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القريشيين من شدة هوله(2) وقد قصد النبي - ص - من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له - ف - ما أراد ولقد كان اهتمام النبي - ص - بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقاً عسكرياً بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية(3).

---

1) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص275.
2) الطبقات لابن سعد (135/2).
3) العبقرية العسكرية وغزوات الرسول، اللواء محمد فرج، ص565.

علي أبواب مكة :

ولما اقترب الحبيب محمد - ص –من مكة توقف عند ذي طوى(1) وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة(2)، وبطن الوادي، فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال: يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش(3) قريش قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً وأحض بيده ووضع يمينه على شماله وقال موعدكم الصفا(4). وبعث رسول الله - ص - الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء (5)من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله - ص - وأمرهم أن يكفوا أيدهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه(6) .

1) ذي طوى واد من أودية مكة ، كله معمور اليوم ، يسيل في سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب ، وتفضي إليه كل من ثنية الحجون - كداء قديما - وثنية ريع الرسام - كدى - قديما. ويذهب حتى يصب في المسفلة عند قوز المكاسة - الرمضة قديما- من الجهة المقابلة .
2) البياذقة:هم الرجالة (وهو فارسي معرب).
3) أوباش: جموع من شتى البطون.
4) مسلم ، الصحيح 3/ 1405(حديث 1780).
5) البخاري،الصحيح 5/ 189(حديث 4290- 4291).
6) البخاري،الصحيح (فتح الباري 8/ 10).

ولم يرتدع المشركون المعاندون ورءوس الكفر من قريش عن غيهم حتى بعد أن أحدقت بهم قوات المسلمين، فقد عولوا على تجميع قوات من قبائل شتى من حلفائهم لكي يدفعوهم لحرب المسلمين بقصد منعهم من دخول مكة، وكانوا مهيّئين للالتحاق بتلك القوات إذا حققت ما يؤملون، أما في حالة الفشل فإنهم يعطون ما طلب أبو سفيان منهم من الصلح. وقاد جموع أحلاف قريش التي تجمعت في الخندمة (1)صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو (2).ولما مر رسول الله ص بأبي سفيان ومضي قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحَمِيت الدسم الأخمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .قالوا:قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟(3)

---

1) أحد جبال مكة.
2) ابن هشام،السيرة 2/ 407.
3) ابن هشام،السيرة ، 405/2

وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهمثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي علة هذا سلاح كامل وألَّة(1)

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقي عليّ الباب فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ما كنت تقول؟

فقال: يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة(2). واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

---

1) ألة: حربة.

2) المؤتمة: الاسطوانة، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.

يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة

لهم نهيت(1)خلفنا وهمهمة لم تنطقي باللوم أدنى كلمة(2)

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد ولم تلق تلك القوات مقاومة وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربعة ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله - ص - عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول - ص -، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم، مع بعض حلفائهم عند الخندمة

1) النهيت: صوت الصدر.
2) البداية والنهاية (295/4).

وكانت مقاومة المشركين يسيرة، وكانت أعنف المواجهات قد حصلت عند جبل الخندمة حين التحمت قوات خالد بالمشركين فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين على أصح الروايات (1)، في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلا (2)، وكان هذا القتال الذي جرى في مكة بسبب عدم احترام المقاومين للأمان الذي أعلنه النبي ص لأهل مكة، وقد توجع أبو سفيان بسبب كثرة القتلى وخاطب النبي ص قائلا: «يا رسول اللّه، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم(3). لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء وكان الشعار المرفوعمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل - ف - لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه(4).

1) البخاري،الصحيح (فتح الباري حديث 4280)، وفي رواية ابن إسحاق ثلاثة (ابن هشام ،السيرة 2/ 407)، والعمدة على ما أورده البخاري فقد نص على اثنين من الشهداء بين المسلمين.
2) ابن هشام ،السيرة 2/ 407،الحاكم المستدرك 3/ 241، ونقل البيهقي في السنن الكبرى (9/ 120) من مراسيل موسى بن عقبة أنهم قريب من عشرين رجلا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة من هذيل وذكر الواقدي أنهم أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل المغازي 2/ 827- 829،ابن سعد ، الطبقات 2/ 126، وجعلهم الطبراني سبعين رجلا وهو ما نقل عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، 4/ 331.
3) مسلم ،الصحيح 2/ 95- 96.
4) د. عماد الدين خليل،دراسة في السيرة ،ص245.

دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله - ص - مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام(1)، وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح(2)، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز(3)، وعندما دخل مكة فاتحاً -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد(4)، وهو ابن مولى رسول الله ص ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة(5).قال ابن كثير: "وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ف مكة في مثل هذا الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود ـ أي ركع ـ يقولون حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة) (6).

1) مسلم رقم 1358.
2) البخاري،كتاب المغازي(108/5) رقم 4281.
3) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة،ص396.
4) البخاري، كتاب المغازي رقم 4289.
5) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي،ص337.
6) البداية والنهاية(295/4).

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي - ص - لمكة:على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله - ص - على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينسب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً وأي كرامة عظمى حفّه الله بها هذا الصباح الميمون، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً..) (1).وحين مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان عند المضيق بمر الظهران، قال سعد بن عبادة حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة» (2) فتأثر أبو سفيان من ذلك واشتكى إلى الرسول ص من مقالة سعد، فقال ف: «كذب (3) سعد، ولكن هذا يوم يعظم اللّه فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة» (4)، وأخذ النبي ص راية الأنصار من سعد بن عبادة ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدا كلم النبي ص بعد ذلك ملتمسا أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه(5).

---

1) فقه السيرة للغزالي، ص380،379.
2) البخاري ،الصحيح 5/ 186 (حديث 4280).
3) كانت تستعمل بمعنى أخطأ.
4) البخاري ،الصحيح (فتح الباري حديث 4280).
5) ابن حجر،مختصر زوائد البزار، ص/ 248 ، فتح الباري- شرح حديث(4280)،ابن حجر ، المطالب العالية 4/ 241، الهيثمي ، مجمع الزوائد 6/ 169، ابن كثير ، البداية والنهاية 4/ 323- 328.

وبهذا التصرف الحكيم من الحبيب محمد ص حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنىَ عنها، وفي نفس الوقت لم يُث سعد بن عباده، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لأبنه، ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه(1).الرسول ص يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام ورُكِزت راية رسول الله ص ـ بالحجون عند مسجد الفتح، ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد. فأقبل إلى الحجَر فاستمله، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه، ثلاثمائة وستّون صمناً، فجعل يطعنها بالقوسج ويقول: وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [سورة الإسراء:81]قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ [سورة سبأ:49] والأصنام تتساقط على وجوهها(2).إنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان صلي الله عليه وسلم يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً(3) .

---

1) انظر: قيادة الرسول ص السياسية والعسكرية، ص196.
2) مسلم- الصحيح 3/ 2408 (حديث 1781)
3) فقه السيرة للبوطي، ص282.

وقد تم تحطيم الأصنام جميعا، وكان عددها ثلاثمائة وستين صنما (1). وكانت قد علقت في جدران الكعبة الداخلية صورا لإبراهيم وإسماعيل وإسحق وهم يستقسمون بالأزلام فقال ف: «قاتلهم اللّه ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام» (2). ووردت رواية أخرى تذكر وجود صورة مريم معلقة داخل الكعبة (3)فغطيت جميع الصور بالزعفران وتم إزالتها من جوف الكعبة قبل أن يدخل النبي ص فيها (4)، ووجد فيها حمامة من عيدان فكسّرها ورمى بها خارج الكعبة ، وعند ما طهرت الكعبة دخلها النبي ص وصلى بها (5). وحين خرج فمن الكعبة دعا عثمان ابن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة فأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية قائلاً: اليوم يوم بر ووفاء (6) وكان ف قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه،

1) البخاري، الصحيح 5/ 188، حديث 4287، مسلم ، الصحيح 3/ 1408 (حديث 1781).
2) البخاري ، الصحيح 5/ 188، احمد ، المسند 1/ 365، وأورد البخاري رواية أخرى جاء فيها قوله ف: «هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم» (حديث 3351).
3) البخاري ، الصحيح (حديث 3351).
4) البخاري،الصحيح 5/ 188.
5) البخاري،الصحيح 5/ 222 (حديث 4400) وقد أورد الإمام البخاري في هذه الرواية الصحيحة تفاصيل دقيقة عن المكان الذي صلّى فيه النبي ص في جوف الكعبة، كما أورد تفصيلات عن بناء الكعبة والأعمدة الداخلية.
6) الصنعاني،المصنف 5/ 83- 85 الأحاديث 9073، 9074، 9076،وانظر ابن حجر،فتح الباري- شرح حديث(4289).

وقال يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت، فقال لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال(1)، ولقد أعطى رسول الله - ص - مفاتيح الكعبة قائلاً له: هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء(2)، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم(3)، ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام مهللا مكبرا شاكرا ذاكرا حامدا (4).

فلم يشأ النبي - ص - أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق..هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله - ص - البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا(5).

ثم أمر النبي ص بلال الحبشي أن يؤذن، فصعد إلى ظهر الكعبة وأذن عليها (6)

1) المغازي (838/2).
2) السيرة النبوية لابن هشام (62/4).
3) المغازي (838/2).
4) البخاري،الصحيح 3/ 21 (حديث 4286)، مسلم ،الصحيح 2/ 990 (حديث 1358)وفيه أنه كان يلبس المغفر منذ دخل مكة، ثم نزعه عن رأسه ولبس عمامة سوداء.
5) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة،ص401.
6) الذهبي ،المغازي،ص/ 555 ،البيهقي،دلائل النبوة 5/ 78بإسناد، ابن سعد- الطبقات 3/ 234- 235، الواقدي ، مغازي 2/ 846

لقد أذن بلال ا للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين ،الله أكبر الله أكبر الله أكبر(1)ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد   أحد هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع(2).

إعلان العفو العام:

لما دخل الحبيب محمد ص الكعبة وكبر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، كان الناس حوله ينظرون ، والعيون شاخصة إليه، ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال ف:"يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟" قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه الصلاة والسلام: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (3).

1) فقه السيرة للغزالي،ص383.
2) فقه السيرة للبوطي،ص269.
3) القاسم بن سلام ،الأموال/ 143،ابن سعد 2/ 141- 142.

وقد نزل قول اللّه تعالى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ [سورة النحل:126]

لم يدخل النبي ص مكة دخول الفاتحين، بل إنه دخل خاشعا للّه تعالى وهو يقرأ سورة الفتح ويرجّع في قراءتها وهو على راحلته (1)، وقد دخل المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة فاستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين ولكي يعلّم أبناء الأمة آداب الطواف، وأعلن فحرمة مكة وبأنها لا تغزى بعد الفتح (2)، ورفع من مكانة قريش وأمر بألّا يقتل قرشي صبراً بعد الفتح وإلى يوم القيامة (3).لقد ترتب على العفو العام الذي أصدره الحبيب محمد ص حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى (4).

---

1) البخاري ،الصحيح (فتح الباري- حديث 4280 .
2) الترمذي ،السنن 3/ 83، وقال عنه: إنه حسن صحيح،أحمد ، المسند 4/ 412.
3) مسلم- الصحيح 2/ 97 (حديث 1782)، أحمد- المسند 3/ 412، بإسناد صحيح.
4) المجتمع المدني للعمري، ص179.

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح(1). قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد -مصغراً- ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة(2).ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه(3).والحقيقة أن هؤلاء الذين أهدرت دماؤهم ارتبطت أسماؤهم بقضايا معينة ومواقف تستدعي المساءلة والجزاء من أمثال عبد العزى بن خطل الذي ارتد وقتل من بعثه الرسول ص معه لجمع الصدقات، ثم لحق بالمشركين،

---

1) السيرة النبوية لأبي شهبة (451/2)؛ تأملات في السيرة، ص262.
2) فتح الباري (9/7).
3) السيرة النبوية لأبي شهبة (451/2).

وقد وجد متعلقاً بأستار الكعبة فقتل جزاء ارتداده وقتله لصاحبه وخيانته الأمانة، وكذلك قتل الحويرث بن نقيذ بيد علي بن أبي طالب لكثرة ما كان يؤذي الرسول ص بمكة، كما قتل مقيس بن صبابة بيد غميمة بن عبد الله لقتله رجلاً من الأنصار قتل أخاه عن طريق الخطأ, وهناك من أمّنهم الرسول ص كإحدى جاريتي ابن خطل الهاجيتين لرسول الله ص وسارة مولاة بني المطلب ورجلين احتميا بأم هاني بنت أبي طالب قيل إنهما الحارث بن هشام وزهير بن أمية وكذلك عبد الله بن سعد بن أبي السرح وعكرمة بن أبي جعل وكلهم أسلموا وحسن إسلامهم .وهبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ص حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه .لقد كان النبي - ص - حكيماً بل سيد الحكماء، يزن الأمور بالعدل، ويضع الدواء على الجرح، ويقدِّر المصالح والعواقب؛ قال لقريش: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ثم أهدر دم بعض المجر مين ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة. فالأمر ليس تسامحاً مطلقاً، أو عقاباً مطلقاً، وإنما الأمر هو أن لكل حادث حديث يناسبه ، وإعطاء كل مسألة حقها.إن التسامح المشروع لا يكون إلا إذا صادف محلاً مناسباً، وإن أولئك المجرمين الذين أهدرت دماؤهم ليسوا موضعاً صالحاً للتسامح،

وإن التسامح مع أولئك المجرمين قد يأتي بمفسدة أكبر وهذا أمر لا يجوز بحال من الأحوال .ولقد خشي بعض الأنصار أن يكون الأمان الذي منحه الرسول ص لقريش وتسامحه معهم دليلا على رغبته في قريته ورغبته في المقام بين أبناء عشيرته، فأخبره الوحي بما قالوا فخاطبهم رسول اللّه ص قال: «يا معشر الأنصار». قالوا:لبّيك يا رسول اللّه قال: «قلتم أمّا الرّجل فأدركته رغبة في قريته». قالوا: قد كان ذاك. قال «كلّا إنّي عبد اللّه ورسوله هاجرت إلى اللّه وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم». فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: واللّه ما قلنا الّذي قلنا إلّا ضنّا (1) باللّه وبرسوله. فقال رسول اللّه ص: «إنّ اللّه ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم»(2).

خطبة الرسول ص في اليوم الثاني من الفتح :

وفي اليوم الثني للفتح بلغ النبي - ص - أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد - يقطع- فيها شجراً لم لا تحل لأحد كان قبلي،

1) الضن: هو الشح.

2) مسلم،الصحيح 3/ 1406 حديث 1780،وأورد الإمام البخاري أن أسامة بن زيد- ا - سأل النبي ص إن كان سينزل في بيته، فقال ف:«و هل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟»، ولذلك فقد أقام ف في قبة ضـــربت له في الحجون (البخاري ، الصحيح 5/ 187)، (مسلم ،الصحيح 1/ 567).

ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ص قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلها لكم.يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قُدِّم قاتله، وإن شاؤوا فعقله) (1).ثم أقامَ فبمكةَ لتوطيدِ التوحيدِ ودعائمِ الإِسلام وتثبيتِ الإِيمان ومبايعةِ الناسِ. وفي الصحيح عن مجاشع قال: أتيتُ النبيّ ص بأخي بعد الفتح ليبايعَه على الهجرةِ فقالف: ذهبَ أهلُ الهجرةِ بما فيها ولكنْ أبايعَه على الإِسلامِ والإِيمانِ والجهادِ. (2).والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذا دون تلك، فقد تكون واجبة؛ وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة

1) السيرة النبوية لأبي شهبة (451/2) وعقله: ديته.
2) البخاري، كتاب المغازي رقم 4305 (114/5).

ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عز شأنه،وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [سورة الحديد:10] (1) ولما فرغ رسول الله - ص - من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: ولا يسرقن قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيّ، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها - ف -: خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف. ولما قال: ولا يزنين قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك.وقد بايعن رسول الله - ص - من غير مصافحة،

1) انظر:السيرة النبوية لأبي شهبة (257/2).

فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشةلأنها قالت: (لا والله، ما مست يد رسول الله يد امرأة قد) وفي رواية: (ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة) .(1)

سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

بعد تطهير البيت العتيق من الأصنام عاد البيت كما أراه اللّه تعالى مركزا للتوحيد الخالص، وكان ذلك أكبر ضربة للوثنية في جزيرة العرب حيث كانت الكعبة من أعظم مراكزها، وإتماما لهذا الهدف الأساسي، فإنه ما أن تم فتح مكة وجرى تطهير الكعبة، حتى بادر النبي ص إلى إرسال بعض أصحابه لهدم ما تبقى من مراكز الوثنية، فقد وجّه خالد بن الوليد إلى نخلة(2) من ديار ثقيف لهدم «العزّى» التي كانت لها مكانة عظيمة عند العرب عامة وقريش خاصة، حيث كانوا يزورونها ويهدون إليها ويتقربون عندها بالذبائح، وقد بلغ من تعظيمهم لها أن قريشا حمت لها شعبَا من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة، كما جعلوا لها منحرّا خاصّا ينحرون فيه هداياها يقال له: الغبغب(3)

1) البداية والنهاية (319/4).
2) كانت بواد من نخلة الشـــامية يقال له: حراض بإزاء الغمير على عين المصـــعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال. ابن الكلبي، الأصنام ، ص18
3) ابن الكلبي، الأصنام (19-20).

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه ص فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها، فاشتد ذلك على قريش فأخذت تدافع عن آلهتها بكل ما تملك من قوة، وأعلنت الحرب على المسلمين من أجلها، بل إن أبا سفيان بن حرب قال يوم أحد للمسلمين مفتخراَ بها: لنا العزى ولا عزى لكم، فرد عليه المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. ويوم جاء الحق وزهق الباطل -يوم الفتح الأعظم- يومها تساقطت تلك الأصنام المحيطة بالكعبة المشرفة على يد نبي الهدى والرحمة ف ثم بث رسول الله ص سراياه وبعوثه لتحطيم بقية معاقل الشرك والوثنية منها سرية قوتها ثلاثون فارسًا (1) بقيادة خالد بن الوليد ا، توجهت إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان(2).انطلق خالد بن الوليد ا وأصحابه لإزالة ذلك الطاغوت من الوجود نهائيّا، وعندما وصلت السرية إلى العزى قام إليها خالد "فقطع السمرات (3) وهدم البيت الذي كان عليها"(4) وهو يردد: "كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك"(5).

---

1) الواقدي، مغازي (873/3).
2) انظرابن خياط،تاريخ (88)،وابن هشـام،سـيرة (436/4)،الطبري،تاريخ (65/3)،والعامري،بهجة (445/1).انظر الواقدي،مغازي (873/3)،وابن سعد، طبقات (145/2).
3) والسمرات جمع سمرة : وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم : وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك ، وشوكها قصير ، وورقها صغير ، ولها برم ، أي ثمر أصفر ، ويُؤكل .
4) أخرج ذلك النســـائي، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي الطفيل ا. انظر ابن كثير، تفســـير (454/4)، وأبا نعيم، دلائل (535/2)، والبيهقي، دلائل (77/5).
5) ابن خياط، تاريخ (88).

ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ص وقدم تقريره بإنجاز المهمة ولكن النبي ص استدرك على قائد السرية: "هل رأيت شيئًا؟، قال: لا (1) فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئًا"(2). فرجع خالد وهو متغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب فلما وصل إليها ونظرت السدنة (3) إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة فهربوا إلى الجبل وهو يصيحون "يا عزى خبليه، يا عزى عوريه. فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها"(4). فقدم إليها خالد ا بشجاعته الإيمانية المعروفة، وضربها بالسيف حتى قتلها" ثم رجع إلى رسول الله ص فأخبره بذلك فقال: "تلك هي العزى"(5) (6).

---

1) الواقدي، مغازي (874/3)، وابن سعد، طبقات (146/2).
2) انظر أبا نعيم، دلائل (535/2)، والبيهقي، دلائل (77/5)، وابن كثير، تفسير (454/4).
3) السدنة جمع السادن : هو خادم بيت الأصنام .
4) انظر أبا نعيم، دلائل (535/2)، والبيهقي، دلائل (77/5)، وابن كثير، تفسير (454/4).
5) أبو نعيم،دلائل (535/2)،والبيهقي،دلائل (77/5)،ابن كثير،تفسير (454/4).
6) ابن سـعد، طبقات(354/6)،وابن أبي حاتم،الجرح والتعديل(8/9)،وابن حبان،الثقات (492/5) والذهبي،ميزان الاعتدال(337/4)،وابن حجر،تهذيب التهذيب(11/139-138)،وتقريب التهذيب(582).أبو يعلى،المسند(535/2)، والنسائي،السنن الكبرى - كتاب التفسير(17/4)، وأبو نعيم، دلائل (535/2)، والبيهقي، دلائل (77/5)

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديدا(1) في منطقة تعرف بالمشلل(2). وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجًا وتعظيمًا لها حيث كان "ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة"(3).ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا " فلما قدموا مع النبي ص للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية"(4).﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ [سورة البقرة:158] وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنيفية دين إبراهيم ÷ الخزاعي عمرو بن لحي(5)

---

1) قديد: ثرية جامعة، مذكورة في رسم الفرع، وفي رسم العقيق، وهي كثيرة المياه والبساتين، وسميت قديدا لتقدد السيول بها، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة "ذرة" فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قديدا، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (120) كيلوا مترا ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم. انظر البكري، معجم (1054/3)، والبلادي، معجم (249).

2) المشلل: قال عنها البكري: والمشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة. وقال مالك: كانت حذو قديد. البكري، معجم ما استعجم (1055/3).

3) ابن حجر، فتح (175/8، 498/3)، وعند مسلم. النووي على مسلم (22/9-23-24)، وعند أحمد بسند صحيح. البنا، الفتح (79/18).

4) صحيح موقوف أخرجه مسلم عن عروة عن عائشة ل. النووي على مسلم (22/9).

5) ابن حجر،فتح الباري (499/3). الفاكهي ، أخبار مكة (163/5)

ولما كان الفتح الأعظم في السنة الثامنة من الهجرة سنة تحطيم الأوثان وبالتحديد في الرابع والعشرين من شهر رمضان(1) بعث رسول الله ص إليها رجلا من أهلها سابقا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي ا على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا(2) وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيّا.انطلق زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها".فصاح بها السادن صيحة الواثق: "مناة دونك بعض عصاتك" ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد ابكل ذلك ويضربها ضربة إيمانية قاتلة قضت عليها، ثم يقبل على الصنم مع أصحابه "فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئا، وانصرف راجعا إلى رسول الله ص (3).وتزول مناة من الوجود كما زالت من قبل من القلوب، ويطوف الأنصار بين الصفا والمروة من غير جناح ولا حرج(4).

1) ابن سعد،الطبقات (146/2)،عيون (238/2)،الشامي ، السبل (304/6).
2) ابن كثير، تفسير (254/5)،والزرقاني،شرح (349/2)،ابن هشام،سيرة (86/1)،ابن كثير،بداية (375/4)، والطبري، تاريخ (66/3).
3) ابن سعد، طبقات (146/2). الطبري، تاريخ (63/3)، ابن هشام، سيرة (86/1).
4) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص 289

سرية عمرو بن العاص إلى سواع(1)

وسواع اسم صنم كان لقوم نوح ÷ ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية(2). قال ابن عباس رضي الله عنهما: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع"(3).وكان سواع هذا حجرًا على صورة امرأة وظل هذا الوثن منصوبا تعبده هذيل وتعظمه(4) حتى إنهم كانوا يحجون إليه حتى فُتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجا.بعث رسول الله ص سرية بقيادة عمرو بن العاص التحطيم سواع. ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: "فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟، قلت: أمرني رسول الله ص أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟، قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر،

1) وسمي باسم سواع بن نوح عليه السلام.انظر الشامي، سبل (303/6)، الحلبي، سيرة (209/3).
2) سيرة ابن هشام (78/1)، ابن الكلبي، الأصنام (56)
3) فتح الباري (667/8-668).
4) الطبري ، تاريخ (66/3). فتح الباري (669/8)الشامي، سبل (303/6).

قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟. قال: أسلمت لله"(1).وهكذا تم القضاء على سواع الذي لم يجد من يدافع عنه بقوله: "ولا تذرن سواعًا"(2).

سرية الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

وأرسل الحبيب محمد ص الطفيل بن عمرو الدوسي لإحراق (ذي الكفّين) (3) صنم عمرو بن حممة الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي ص فهدم «ذي الكفين» وحرقه وجعل يحش النار في جوفه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا إني حشئت النار في فؤادكا

1) ابن سعد ، طبقات (146/2) ، الواقدي، مغازي (870/2)، الطبري، تاريخ (66/3)، الشامي ، سبل (303/6)، والحلبي، سيرة (209/3)
2) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 293
3) وذو الكفين صنم من خشب لعمرو بن حممة الدوسي

ثم انحدر معه من قومه 400 سراعا فوافوا النبي ص بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق (1) ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله - ص - للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لايجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً،

فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة.وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز منها إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم شركاً عندها وبها(2).و في فتح مكة نزل قول اللّه تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [سورة النصر:1-3] (3).

1) ابن هشام ، السيرة 2/ 385
2) السرايا والبعوث النبوية، ص302.
3) البخاري ،الصحيح 5/ 189 (حديث 4294).

نتائج فتح مكة :

ولقد كان من أبرز نتائج فتح مكة مبادرة قبائل العرب إلى قبول الإسلام بعد أن تيقنوا من نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، وقد أورد الإمام البخاري رواية من حديث عمرو بن سلمة جاء فيها: أن العرب كانت «تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم(1) »، ويرى ابن إسحاق أن العرب كانت «تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول اللّه ص ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم إ ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول اللّه ص وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول اللّه ص ولا عداوته، فدخلوا في دين اللّه، كما قال عز وجل أفواجا يضربون إليه من كل وجه» (2). ومن نتائج فتح مكة المكرمة تحول مركز ثقل معسكر الشرك إلى الطائف حيث سارعت كل من قبيلتي هوازن وثقيف إلى التصدي للإسلام وقيادة معسكر الشرك المعادي له(3).

---

1) البخاري ،الفتح 7 (4302).
2) ابن هشام ، سيرة 2/ 560.
3) أنظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - **ف**، 1 /373

الأحكام الشرعية المهمة من فتح مكة

وإضافة إلى ما تحقق في فتح مكة من اتساع رقعة ديار الإسلام، وتسارع وتيرة دخول العرب في الإسلام، وإنهاء مقاومة قريش وحلفائها، وتحولهم إلى قوة إيجابية دافعة لنشر العقيدة الإسلامية والتصدي لخصومها ودفع الخطر عنها فقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية المهمة من جراء فتح مكة وخلال أحداث غزوتها من ذلك :جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية؛ حيث صام الرسول ص في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدًا فأفطر (1).قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة (2)صلى النبي ص صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة(2) واستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة (3) وكان في إقرار الرسول ص لجوار أم هاني (4)إقرارا لأمان النساء (5) وقد أبيحت المتعة يوم الفتح ثم حرمت بعد ذلك تحريما أبديا إلى يوم القيامة (6)

---

1) مسلم ، الصحيح 1/ 451.
2) البخاري ،الصحيح 5/ 190.
3) البخاري ، الصحيح 5/ 189 ، مسلم ، الصحيح 1/ 289.
4) البخاري ، الصحيح 4/ 122.
5) أبو داود ، عون المعبود 7/ 44.
6) مسلم ، الصحيح بشرح النووي 3/ 553، وانظر الصحيح 1/ 586، 587.

كما توضحت الأحكام الخاصة بنكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله (1) قرر الرسول ص أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه (2)

ومنها حق الزوجة في الإنفاق على نفسها وعيالها من مال زوجها بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة (3)

ومنها تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام والأوثان (4)

ومن ذلك تحريم الشفاعة في حد من حدود اللّه (5)

ومنها منع صبغ الشيب بالسواد وبيان حكم خضابه بالحناء (6)

والنهي عن قتل المرأة مادامت لا تقاتل (7)

عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول ص في أن يوصي بأكثر من الثلث (8)

ومنها جواز دخول مكة بغير إحرام (9)(10).

---

1) مالك ، الموطأ (شرح الزرقاني 3/ 156، 157).
2) البخاري ، الصحيح 8/ 191.
3) مسلم ، الصحيح 2/ 60.
4) البخاري ، الصحيح 3/ 110، مسلم ، الصحيح 1/ 690، 689.
5) البخاري ، الصحيح 5/ 192، مسلم ، الصحيح 2/ 47.
6) مسلم ، الصحيح 2/ 244.
7) البخاري ، الصحيح، فتح (حديث 3014- 3015)، مسلم ، الصحيح (حديث 1744)، أحمد ، المسند 2/ 115.
8) البخاري ، الصحيح، الفتح الأحاديث 2743، 2744)، الترمذي ، السنن 3/ 291.
9) البخاري ، الصحيح، فتح الباري (حديث 4286)، مسلم ، الصحيح (حديث 1358).
10) أنظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم ، 1 /373

مواقف ودروس :

موقف عمر بن الخطاب امن حاطب بن أبي بلتعة:

لما حدث ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة قال عمر: يا رسول الله، دعني اضرب عنق هذا المنافق، فقال ؟، إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم(1)ومن هذا الموقف يمكن أن نستخرج بعض الدروس والعبر منها:حكم الجاسوس القتل، فقد أخبر عمر بذلك ولم ينكر عليه الرسول ص ولكن منع من إيقاع العقوبة بسبب كونه بدرياً.

شدة عمر في الدين: لقد ظهرت هذه الشدة في الدين حينما طالب بضرب عنق حاطب.

الكبيرة لا تسلب الإيمان: إن ما أرتكبه حاطب كبيرة وهي التجسس ومع هذا ظل مؤمناً.

لقد أطلق عمر على حاطب صفة النفاق بالمعنى اللغوي لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده - ف -. إذ النفاق إبطان الكفر والتظاهر بالإسلام، وإنما الذي أراده عمر، إنه أبطن خلاف ما أظهر إذ أرسل كتابه الذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ويبذل دمه في سبيله(2). تأثر عمر من رد الرسول - ص -،

1) مسند أحمد (213/1).
2) السيرة النبوية لأبي فارس، ص404.

فتحول في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكى من الخشية والتأثير ويقول: الله ورسوله أعلم، ذلك لأن غضبه كان لله ولرسوله فلما تبين له أن الذي يرضي الله تعالى ورسوله - ص - هو غضَّ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد استجاب لذلك(1). لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطب؛ ذهب لهذا الرأي الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه(2)، وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيم وذكر أقوال الأئمة الأربعة ثم قال: والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، استبقاه(3).

1) التاريخ الإسلامي للحميدي (176/7، 177).
2) المستفاد من قصص القرآن (402/2).
3) زاد المعاد (443/3).

إسلام أبو سفيان :

إن في هذه القصة دروس وعبر وحكم في كيفية معاملة رسول الله - ص - للنفوس البشرية ومن أهم هذه الدروس:

عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي - ص -، وهم به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله - ص -، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف وأهتز كيانه فلم يملك أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. إنه يفدي رسول الله - ص - بأبيه وأمه، ويثني عليه الخير كله: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك(1)، وعندما قال العباس للنبي ف إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعل له شيئاً فقال النبي - ص -: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمنففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه(2)، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله(3)

1) فقه السيرة النبوية للغضبان ، ص564.
2) المستفاد من قصص القرآن (403/2).
3) محمد قلعجي، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص245.

وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس(1). وفي قول رسول الله - ص - لعمه العباس عن أبي سفيان: أحبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله ص يراها(2)، ففعل العباس وكان - ف - يريد أن يشن حرباً نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعينيّ رأسه مدى قوة ما وصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية(3)، وبالفعل تم ما رسمه رسول الله ص وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله - ص - في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبلُ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة قال: فنعم إذا...) (4).

1) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 455/2
2) سيرة ابن هشام (52/4).
3) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص447.
4) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (52/4).

إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله - ص - مكة وظهر، انقحمت(1) بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله - ص - يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ص قال: يا رسول الله تؤمنه؟ فقال: نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر! ثم قال رسول الله - ص - لمن حوله: من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع! فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله بَراً، صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي - ص –

1) أي رميت بنفسي.

وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة(1).لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله - ص - بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة(2)، يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس(3) يوم اليرموك(4).

إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير - ا-: ..وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة(5). وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحك انظر من ترىّ قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمد عليّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حمّلتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس

1) مغازي الواقدي (2/846-847)؛ المستدرك للحاكم (3/381).
2) التاريخ الإسلامي للحميدي (7/217،216).
3) كردوس: فرقة كبيرة.
4) سيرة أعلام النبلاء (2/195).
5) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وهو كان مرفأ مكة ومرس سفنها قبل جدة. معجم البلدان (5/276).

وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله - ص -: يا رسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤَمّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله - ص -: قد أمنته، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله - ص - قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله - ص - فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ص: خذ عمامتي.قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله - ص - يومئذ مُعتجراً(1) به، بُرد حَبَرة(2). فخرج عمير في طلبه الثانية حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك ابن أمك وأبيك. أذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم وقد بعث إليك بُبرده الذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله - ص - يُصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا.

1) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية 69/3).
2) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

فقال صفوان: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلى بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بُبردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك.

فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله ، حتى تبين لي قال: بل تُسيّر أربعة أشهر، فنزل صفوان. وخرج رسول الله - ص - قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله ص:عارية مُؤَداة، فأعاره، فأمره رسول الله - ص - فحملها إلى حنين، فشهد حنُيناً، والطائف ثم رجع رسول الله - ص - إلى الجعرانة، فبينما رسول الله - ص - يسيرفي الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلئ نَعَماَ وشاءَ ورعاءَ فأدام إليه النظر ورسول الله ص يرمقه فقال: أبا وهب ، يعجبك هذا الشِّعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه(1). ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ص حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر،

1) مغازي الواقدي (2/853-855).

ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه(1)، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ص فقال: والله لقد أعطاني رسول الله - ص – ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ) (2)(3).

إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير - ا- قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمّنه، فقال رسول الله ص هو آمن، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حَيَ من عَكّ(4)، فاستغثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول: قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا،

---

1) التاريخ الاسلامي (220/7).
2) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2313، ص1806.
3) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 567/2
4) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية. معجم ما استعجم، ص223.

فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمداً رسول الله - ص -. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنَّك فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يؤمئذ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله - ص - لأصحابه: يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبّوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت. قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة. فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي - ص - عكرمة وثب إليه –وما على النبي - ص - رداء- فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله - ص - فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمّنتني. فقال رسول الله ص: صدقت، فأنت آمن! فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أنلا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة -وتفعل، وتفعل، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرّنا برّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فسُرّ بذلك رسول الله ص ، ثم قال: يا رسول الله علمني خيرَ شيء أقوله. قال: تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله. قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ص: تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد. فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ص: اللهم أغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منِّي من عرض، في جهي أو أنا غائب عنه! فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل لله ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيداً(1).

---

1) يعني يوم اليرموك.

وبعد أن أسلم رد رسول الله ص امرأته له بذلك النكاح الأول(1).

لقد كان سلوك النبي ص في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به وفي رواية قال له: مرحباً بالراكب المهاجر(2)، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله - ص - وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوّج بإسلامه بين يدي رسول الله - ص -، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب من رسول الله - ص - دنياً وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له من كل ما وقع فيه من ذنوب ماضيه، ثم أقسم أمام النبي - ص - بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبلِيَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله(3).

---

1) مغازي الواقدي (2/851-853).
2) مجمع الزوائد (9/385).
3) التاريخ الإسلامي (7/225،224،223).

إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله - ص - مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله - ص - قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله - ص -: غيروا هذا من شعره(1)، ويروى أن رسول الله - ص - هنأ أبا بكر بإسلام أبيه(2). وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي - ص - في توقير كبار السن واحترامهم ويؤكد ذلك قوله - ف -: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا(3). وفي قوله - ف : إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم(4)، كما أنه - ف - سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى(5)(6).

---

1) السيرة النبوية لابن هشام (54،55/4).
2) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص577.
3) سنن الترمذي، كتاب البر ، باب 15.
4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب 20.
5) التاريخ الإسلامي للحميدي (195/7).
6) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ،2 /568

إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي - ص - وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله - ص -: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يارسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ص ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما منْ خلق الله شيء أحبّ إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها. فقالت: هَلمّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمّ إلى الحديث فقلت لا< يأبى عليك اللهُ والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله لو ما رأيت محمداً وقبيله

لرأيت دين الله أضحى بَيَناً والشرك يغشي وجهه الإظلام (1)

---

1) التاريخ الإسلامي (213/7).

إسلام عبد الله الزبْعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فر عبد الله الزبعري السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رحلاً أحَلّك بُغضُه نجران من عيش أحذَّ ليم(1)

أي فليبق الله لنا محمداً - ص - هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليَدم الله عليك ابن الزبعري عيشاً ذليلاً مهيناً أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه(2):

غضب الإله على الزبعري وابنه وعذاب سوء في الحياة مقيم

1) البداية والنهاية (307/4).
2) محمد كابتي، الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، ص92.

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري فقام وقعد وقلّب أموره ثم أراد الله به الخير فعزم على الدخول في الإسلام ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله - ص - وأعلن أسلامه وطلب من رسول الله - ص - أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام فقال له رسول الله: إن الإسلام يجب ما قبله(1). ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حله(2)، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري - ا-، قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله - ص -(3)، قال ابن عبد البر رحمه الله: وله -ابن الزبعري- في مدح النبي - ص - أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره(4). وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي - ص - ، فأمر له بحلة(5).وقال القرطبي: (وكان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي - ص -، أشعاراً كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره(6).) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه(7).

---

1) المغازي (848/2).
2) الزركلي ، الأعلام (87/4)؛ الاصابة لابن حجر (308/2)
3) الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، ص97.
4) الاستيعاب لابن عبدالبر (310/2).
5) الإصابة (308/2).
6) تفسير القرطبي (407/6).
7) البداية والنهاية (308/4).

محصلة فتح مكة :

نعم إن الصراع بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وبين المعتدي والمعتدي عليه قديم قدم الإنسانية،وقد عرفت الإنسانية الحرب على مر الدهور وكر العصور فالحرب ضرورة إنسانية واجتماعية ، ووسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية ،وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب – كغيره من الديانات والحضارات - ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدينة القرن العشرين ، ولا إلي ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة ، فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف آثارها إلي آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً ، كلها ترقي إلي احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها ، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية ، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية

. (1) وهذه المعاني والقيم الإنسانية والحضارية التي صاغها الإسلام في الحرب قد تجسدت بوضوح في فتح مكة ، فالخسائر لا تذكر إضافة إلى القيم والمعاني الإنسانية التي أرساها الحبيب محمد ص ، وللنظر إلي محصلة الفتح :   حادث سرقة واحدة لأخت أبي بكر الصديق لم يعرف صاحبها » فقام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشدكم بالله والإسلام طوق أختي ؛ فو الله ما جاء أحد ، ثم قال الثانية والثالثة فما جاء به أحد ، فقال : يا أخية احتسبي طوقك ؛ فو الله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل « (2) . قال ابن كثير : يعني به الصديق ذلك اليوم على التعيين لان الجيش فيه كثرة ولا يكاد أحد يلوي على أحد مع انتشار الناس ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي والله أعلم(3).

حادث سرقة آخر قامت به امرأة قرشية مخزومية ضبطت متلبسة بجرمها ، وجرت محاولات ووساطات كبرى لتفادي عقوبتها بقطع يدها .

أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله - ص - في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله. ص لما كان العشيّ قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله

(1) محمد فريد وجدي ، من معالم الإسلام ، ص 104 .
(2) السيرة النبوية ، لابن هشام ، 37/4/2 .
(3) البداية والنهاية ، 327/4

ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول - ص - بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله - ص -(1). وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية(2).

1) البخاري، المغازي رقم 4304.
2) معين السيرة، ص402؛ التاريخ الاسلامي (233/7).

حادثة قتل واحدة لثأر قديم :

أعطى رسول الله الخزاعة التي قُتل منها أربعة وعشرون قتيلاً غدراً ونُهبت أموالها حق الثأر لنفسها ساعة محددة من النهار فقال : » كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر ، فخبطوهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ص. فلما كان بعد الفتح بيوم أقبل خراش بن أمية فحمل على جندب بن الأدلع الهذلي، فطعنه في بطنه فمات . فجعلت حشوته تسيل من بطنه ، فسمع بذلك رسول الله ص ، فقال : يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل ؛ فقد والله كثر إن نفع . إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم أو قتل غير قاتله أو قتل بذحول الجاهلية . فقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه . فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير . النظرين إن شاؤوا فدِيتُه كاملة ، وإن شاؤوا فقتله . ثم ودى رسول الله ص ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة . قال ابن هشام : مائة ناقة . وبلغني أنه أول قتيل وداه رسول الله ص (1)

بيوت المسلمين المهاجرين جميعاً كانت في مكة ، وهي حقهم المغتصب ؛ومع ذلك فقد أبى رسول الله ص استردادها ، بل نزل خارج مكة . فقد روى البخاري وغيره عن أسامة بن زيد أنه قال : » يا رسول الله ! أين تنزل غداً ؟ تنزل في دارك ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار « (2)

1) المغازي ، للواقدي ، 2 / 844 .
2) البخاري ، ح/ 4284 .

وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ص ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله ص: انزل في بعض بيوت مكة غير منازلك ، فأبى رسول الله ص وقال: » لا أدخل البيوت (1) ولم يزل رسول الله ص مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد لكل صلاة من الحجون » (2).الذين قتلوا في مكة كان هناك من قتل في الحرب والمواجهة مع خالد وخراش الذي سبق ذكره ، وكان هناك مجرمو حرب فثلثهم كانوا بالمدينة ، فارتدوا عن الإسلام وهربوا إلى مكة وقتلوا بعض القتلى . وآخرون كانوا من عتاة المجرمين ومن بينهم ثلاثة نسوة ارتدت إحداهن وكانت اثنتان منهن تغنيان بهجاء رسول الله ص ، وكان عددهم ثلاثة عشر أسلم ثمانية منهم واستؤمن لهم ، وقتل منهم خمسة » (3) .هدمت أصنام المشركين فقط ؛ فعن ابن عباس ب « أن رسول الله ص دخل مكة يوم فتحها وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص ، وكان هبل أعظمها ، وفي يد رسول الله ص قوس وقد أخذ بسِيَة القوس فجعل رسول الله ص كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينيه ويقول : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [سورة الإسراء:81]

---

1) البخاري ، ح/4284 ، وفتح الباري ، 8 / 324 .
2) فتح الباري ، 8 / 323 ، 324 .
3) مسلم ، ح/ 1781 ، والبخاري ، ح 4287 .

فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه ، وفي لفظ لقفاه من غير أن يمسه » (1) عفا رسول الله عن فضالة بن عمير الليثي من بني بكر الذي حاول اغتياله ومسح صدره ودعاه إلى الإسلام فأسلم . أما طعام الفاتحين ، فقد روى الطبراني عن ابن عباس ا« أن رسول الله ص قال لأم هانئ (ابنة عمه) يوم الفتح : هل عندك من طعام نأكله ؟ قالت : ليس عندي إلا كسر يابسة (خبز يابس جاف) ، وإني لأستحي أن أقدمها لك ، فقال : هلمي بهن . فكسّرهن في ماء وجاء بملح ، فقال : هل من أدم ؟ فقالت : يا رسول الله ! ما عندي إلا شيء من خل ، فقال : هلميه ، فصبه على الطعام وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال : يا أم هانئ ! لا يفقر بيت فيه خل » (2). لقد جاء فتح مكة ليرسي ويحدد المبادئ العليا التي تنطلق منها البشرية مثل :-

إعلان التوحيد :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده

---

1) السيرة النبوية ،لابن هشام 4 / 46 .

2) مجمع الزوائد للهيثمي ، 6 / 176 .

(1) **إلغاء الجاهلية وآثارها :**

ألا إن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين . وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج (2) فقد أعلن المبدأ ، وأعلن تنفيذه مباشرة ، فأسقط دم ابن عمه ربيعة بن الحارث » وفي رواية : وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب « فيسقط ربا عمه العباس مع دم ابن عمه ربيعة .

دية قتيل الخطأ :

ألا وفي قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها (3).. وذلك لتغليظ حرمة الدم فلا يتساهل فيه .

إلغاء الفوارق الطبقية ، ووحدة البشرية :

ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها . كلكم لآدم وآدم من تراب « ثم تلا هذه الآية : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [سورة الحُجُرات:13] (4)

1) المغازي ،للواقدي ، 2 / 835 ، والسيرة النبوية ،لابن هشام ، 2 / 161، تاريخ الطبري ، 2 / 412
2) المغازي ،للواقدي ، 2 / 835 ، والسيرة النبوية ،لابن هشام ، 2 / 161، وتاريخ الطبري، 2 / 412
3) المغازي ،للواقدي ، 2 / 835 ،والسيرة النبوية ،لابن هشام ، 2 / 161، وتاريخ الطبري ، 2 / 412
4) المغازي ، للواقدي ، 2 / 835 ، والسيرة النبوية ،لابن هشام ، 2 / 161، وتاريخ الطبري، 2 / 412 .

فالناس كلهم من أصل واحد . يتفاوتون بقربهم من ربهم أو بعدهم عنه . وليس الأمر الضابط على سلطة الدولة فقط كما يقول الرئيس الأمريكي ؛ بل الضوابط على سلطة الخلق جميعاً بحيث لا يطغى فرد على فرد بنسب أو جاه أو مال . إنما الكفاءة والبر التقي الكريم .لقد كان يعلن هذه المبادئ في بيت الله الحرام ، وفي سلطان قريش التي تفخر على العرب جميعاً بأنسابها ، وفي عشرة آلاف من العرب وبجوارهم ألفان من قريش ، ويسقط كل الفضل العربي أو المصري أو اليمني أو القرشي ؛ يعلن هذا ضد عواطف جيشه كله الذي يفخر بانتمائه العربي ويعتز بنسبه ، ويخوض الحروب والأهوال من أجل كرامة القبيلة وسيادتها .ولم يكن إعلان هذا المبدأ نتيجة ثورة شعبية مثلت أكثرية جيشه اضطر لمجاراتها من الفرس و الروم ، بل أعلن ذلك أمام قريش ومَنْ وراءها من العرب :« إن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب »(1) .

1) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، حديث رقم 3270.

حرمة مكة والبيت الحرام ، واعتبار السلم أساس العلاقات الدولية :

« ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ووضع هذين الأخشبين ؛ فهي حرام بحرام الله ، لم تحل لأحد كان قبلي ولن تحل لأحد كائن بعدي ، لم تحل لي إلا ساعة من نهار يقصرها رسول الله ص بيده هكذا ولا ينفَّر صيدها ، ولا يعضد عضاها ، ولا تحل لقتطها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها » فقال العباس وكان شيخاَ مجرباً : إلا الإذخر (1) يا رسول الله ؛ فإنه لا بد منه للقبر وظهور البيوت . فسكت رسول الله ص ساعة ، ثم قال: إلا الإذخر ؛ فإنه حلال (2) فرمز السلام في الوجود ومعقله هو مكة و البيت الحرام حيث يأمن الطير فلا يصاد ، والحشيش فلا يقطع ، والشوك فلا يقلع . بَلْهَ الإنسان إنه مركز السلام والأمن في الوجود(3).

1) الإذخر: حشيش طيب الريح، والجليل الثّمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت. وقيل هو الثّمام إذا عظم وجلّ. لسان العرب: مادة (ذخر، جلّ).
2) المغازي ،للواقدي ،2 / 835 ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، 2 / 161، وتاريخ الطبري ، 2 / 412
3) د. منير محمد الغضبان ، عندما يحكم الإسلام .. وعندما تحكم الجاهلية ، مجلة البيان ، العدد 58

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

وخلال إقامته في مكة المكرمة بعث النبي ص خالد بن الوليد على رأس سرية كبيرة من المهاجرين والأنصار ورجال من بعض القبائل العربية المسلمة كسليم، وبني مدلج بن مرة(1) بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسين رجلا فيهم عبد الرحمن بن عوف وعبد اللّه بن عمر إلى بني جذيمة (2) ، وذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة، داعيا لهم إلى الإسلام ولإخضاع قبائل الأعراب الحليفة لقريش، والتي كانت تكوِّن كتلة الأحابيش التي شاركت ضمن الجيوش القرشية التي خاضت بدرا وأحدا والخندق ضد المسلمين، وذلك إكمالا لإحكام سيطرة المسلمين على المنطقة ونشر الدعوة فيها، وفتح الطريق أمامهم إلى الطائف ثاني أكبر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية آنذاك، والتي كانت تمثل حاجزا أمام نشر الدعوة الإسلامية فيها(3).

تحركت السرية نحو هدفها ، ثم إن بني جذيمة لما سمعوا بخبر السرية استعدوا للقتال ولبسوا السلاح ، وعلى الغميصاء(4) تقابل الجيشان، فدعاهم خالد إلى الإسلام "فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا"(5).

---

1) ابن هشام، سيرة (429/4)

2) وكانوا يقيمون في يلملم، قال ابن سـعد إنهم بأسـفل مكة على ليلة منها ناحية يلملم (الطبقات 2/ 147)، وذكر أن «يلملم» جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث، وقيل هو واد، ويمكن الجمع بينهما فيكون جبل يشرف على واد، انظر ياقوت- معجم البلدان 8/ 514. وبلادهم تبعد ثمانين كيلا إلى الجنوب من مكة.

3) البخاري ، الصحيح 5/ 131، ابن كثير ، التفسير 4/ 306.

4) الغميصاء : مكان أسفل مكة على ليلة ناحية بلملم .انظر ابن سعد، طبقات (147/2)، والبكري، معجم (1000/3)، وذكر البلادي أنه لا يعرف موضعا قريبا من مكة يعرف بهذا الاسم، وأنه ربما تغيَّر اسم المكان مع الزمن. البلادي، معالم مكة (205).

5) ابن حجر، فتح ، 57/8،

ونظراً لما هذه الكلمة من ماضٍ سيء في تاريخ الإسلام، حيث كانت تطلق في مقام الذم للمسلمين الأوائل بمكة، والاستهزاء بهم من قِبَلِ المشركين، ونظرا لدقة الموقف وحراجته والذي يتطلب سرعة الخاطر في إعطاء القرار الحاسم من أي قائد يحرص على نجاح مهمته، فقد تأوّل خالد بن الوليد ا"الذي كان يعرف الكلمة وظروف استعمالها"(1)، كلمتهم تلك على أنها استهزاء وسخرية بالمسلمين "فجعل يقتل منهم ويأسر"(2) ثم إنه أمر بعد فترة بقتل الأسرى باعتبار أنهم كانوا مستهزئين بالإسلام، فرأى أنه لا بدَّ وأن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من الأعراب. ولكن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر، وبعض الصحابة ي(3) ، لم ينقادوا لأمر خالد ا وخالفوه في اجتهاده، ورأوا أن بني جذيمة قد "عبروا عن إسلامهم بما يعرفون"(4)، وكان أكثرهم معارضة له عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر ن ، حيث قال عبد الله ط: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره"(5).

1) أكرم العمري، المجتمع المدني ، ص194 .
2) ابن حجر، فتح (57/8، 182/13).
3) ابن هشام، سيرة (430/4-431)، والواقدي، مغازي (880/3-881).
4) البخاري ، الصحيح 5/ 131، ابن كثير ، التفسير 4/ 306. أكرم العمري ،المجتمع المدني ، ص194 ،السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 249
5) ابن حجر، فتح (57/8، 181/13).

ويذكر الواقدي أن بني سليم قتلوا كل من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فكان عدد قتلى بني جذيمة قريبا من ثلاثين رجلا(1)، منهم رجل غير جذيمي ساقته منيته وأودى به عشقه لامرأة جذيمية إلى مصيره المحتوم(2). وعند رجوع السرية من مهمتها رفع المعارضون لخالد تقريرا مفصلا بما حدث للقائد الأعلى رسول الله ص والذي عبّر عن إنكاره لفعل خالد بقوله: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد". قالها مرتين (3). كما أنكر فعلى خالد ما فعله من شتم عبد الرحمن بن عوف وقال: «لا تسبّوا أحدا من أصحابي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه» (4).وروي ابن إسحاق أن رسول الله ص بعث عليّ بن أبي طالب ا بمال فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال وزادهم فوق ذلك إحسانا إليهم وتطييبا لنفوسهم (5)(6).وقد ذهب البعض إلي إدانة خالد بن الوليد في فعله هذا فأخذوا يسوقون الروايات الضعيفة المُشْعِرة بإدانة خالد رضي الله عنه، وأنه فعل ذلك إدراكا لثأر قديم مع بني جذيمة(7)

1) الواقدي، مغازي (884/3).
2) الطبراني، معجم (370/11)، والبيهقي، دلائل (117/5-118). وجاء في رواية فقال الرجل : إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم، فدعوني أنظر إليها نظرة -قال فيه-: فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال: "أما كان فيكم رجل رحيم . أنظر : ابن سعد، طبقات (149/2)، ابن هشام، سيرة (433/4)، الطبري، تاريخ (68/3).
3) ابن حجر، فتح (57/8)، القسطلاني، إرشاد الساري (417/6).
4) مسلم- الصحيح 4/ 1967 ، (حديث 2541).
5) ابن هشام، سيرة (430/4)
6) ابن هشام، سيرة (428/4-433)، والواقدي، مغازي (875/3-884)، وابن سعد، طبقات (147/2-149)، والبيهقي، دلائل (118/5-113)، ابن حجر، فتح (274/6، 57/8، 181/13)، والقسطلاني، إرشاد (417/6-416) ، وأخرجه الإمام أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (167/21).
7) ابن هشام، سيرة (431/4)، والواقدي، مغازي (876/3-882)

والحقيقة أن كل هذه الروايات ضعيفة لا يحتج بها، فالواقدي متروك، وابن إسحاق ساقها بلا سند. والغريب أن الواقدي بعد ما يسوق عدة روايات تدين لخالد رضي الله عنه، يختمها برواية حول الحادثة كلها تذكر أن خالدا ا ما قتل بني جذيمة إلاّ بعد أن امتنعوا أشدّ الامتناع وقاتلوا وتلبسوا السلاح، وأنه انتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء، ولا يسمع أذانا ثم حمل عليهم فادَّعوا بعدُ الإسلام(1). فهناك شخصية خالد قائد الجيش وما يتطلبه منه الموقف من حزم وسرعة بديهة وتصرّف عاجل، وهناك على ما أعتقد قلة خبرته الفقهية الضرورية لإصدار الأحكام الاجتهادية قياسا مع الصحابة الذين أنكروا عليه، كعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، لسابقتهم في الإسلام، وحداثة عهده به(2).

وهناك شخصية أفراد القبيلة وماضيهم المليء بالغدر والفتك(3)، والذي يعرفه خالد جيدا.وهناك الأهم، وهو تصرفهم أثناء الحادثة، قوم مدجّجون بالسلاح، مستعدون للقتال، وفجأة عند ما ظهر عليهم المسلمون قالوا: صبأنا صبأنا. وكانت هذه اللفظة متداولة في مكة، وتطلق على كل من أسلم حديثا على سبيل الذم والاحتقار، فكان واجب القيادة يحتم على خالد سرعة الحسم،

1) الواقدي، مغازي (883/3).

2) لم يسلم خالد ا كما تذكر روايات أهل المغازي إلاّ قبيل فتح مكة. ابن هشام، سيرة (277/3)، والواقدي، مغازي (746/2-749). والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتفاوتون في الفقه، ويدل على ذلك حديث: "ربَّ مبلَّغ أفقه من سامع".

3) ورد في بعض روايات أهل المغازي أنهم كانوا من أشرِّ حيٍّ في الجاهلية وكانوا يسمّون "لعقة الدم". انظر الحلبي، إنسان (210/3).

فربّما أنه رأى في تقديره الشخصي وما أدَّى إليه اجتهاده أنهم لو كانوا قد أسلموا لما لبسوا السلاح، واستعدوا للقتال وهم يعرفون أن المسلمين قريبون منهم ويسمعون أخبارهم.وما خبر فتح مكة بالخبر الذي يخفى، وربما أنه اعتقد أنهم لو أسلموا لكانوا عرفوا النطق بالشهادتين، وهي الوثيقة الوحيدة التي تفرق بين المسلم والكافر أو ربما أنه ظن أنهم قالوا كلمتهم تلك احترازا وخوفا من السيف(1).وقال الخطابي: "وقد يحتمل أن يكون خالد إنما لم يكفَّ عن قتالهم بهذا القول من قِبَلِ أنه ظنَّ أنهم عدلوا عن اسم الإسلام إليه أنفة من الاستسلام والانقياد فلم ير ذلك القول منهم إقرارا منهم بالدين".ويعتقد أنه قد جرى اجتهاده بالنسبة للأسرى قياسا على أسرى بدر، وما جرى حولهم من عتاب الله عز وجل لنبيه ف، فربما أنه ظنَّ أنهم أسرى كفّار، لا بدَّ من أن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من المشركين.فكل هذه الاحتمالات وما يصاحبها من أمور دقيقة وملابسات شائكة تجعل أي قائد في مثل موقف خالد ا في موضع شكٍّ في مثل من هم في موقف بني جذيمة، فجرى اجتهاده الذي لامه عليه رسول الله ص ؛ لأن المسألة تتعلق بأرواح أناس بَدَرَ منهم شبهة تدرأ القتل عنهم "

1) وقد حدث مثل ذلك لأسامة بن زيد في سرية الحُرقات من جهينة، حينما قتل رجلا منهم قال: لا إله إلا الله بعد أن رفع عليه السيف. انظر ابن حجر، فتح (517/7).

وإنما نقم رسول الله ص من خالد موضع العجلة، وترك التثبت في أمرهم أن يتبين المراد من قولهم: صبأنا"(1).

وأخيرا لو كان الأمير سيئًا للدرجة التي وردت في بعض الروايات التي لا تصلح للاحتجاج بها لضعفها الشديد ونكارتها، والتي استغلها بعض الحاقدين على الإسلام ورجالاته الأفذاذ، مثل خالد بن الوليد رضي الله عنه، سيف الله المسلول، الذي دوّخ الكفرة والمشركين بانتصاراته الباهرة -لحدث بعد هذه الحاديثة أمران مهمان جدا لا بدّ من حدوثهما في مثل هذه المسائل الخطيرة وهما: أولا: نزول آيات قرآنية تشجب تصرف خالد وتعاتبه عليه كما حدث في سرية أضم وقصة محلم بن جثامة مع عامر بن الأضبط(2).

ثانيًا: محاسبة خالد ومعاقبته على فعلته أو على أقل تقدير عزله من قيادة الجيش والسرايا بعد تلك الحادثة، وذلك أمر لم يحدث مطلقا. ثم إن خالد بن الوليد ا قد ائتمنه رسول الله ص على دماء المسلمين وأعراضهم، ومن بعده صاحبه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلا يمكن أن يقتل أحدًا من الناس دون حقٍّ إلاَّ متأولاً. قالها أبو بكر الصديق ا حينما بلغه قتل خالد لمالك بن نويرة(3).

---

1) الخطابي، أعلام (1765/3).
2) ابن حجر، فتح (258/8-259).
3) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 254

غزوة حنين

بعد فتح مكة والقضاء على أعظم قوة للشرك في الجزيرة العربية لم يبق أمام المسلمين إلا قبائل هوازن وثقيف المتاخمة لمكة المكرمة، وقد كان رسول الله ص مصمما على مطاردة فلول الوثنية والإجهاز على معاقل الشرك في جزيرة العرب التي لا يجتمع فيها دينان، وقد ترامت أنباء فتح مكة في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة في ديار هوازن وثقيف القريبة من مكة، وما أن سمعت قبائل هوازن بهذا الفتح الإسلامي الكبير حتى تداعت فيما بينها تتدارس هذا الحدث الجلل وترصد تحركاته نحوها، فكانت النتيجة أنها عزمت أن تهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها، فأعدت عدتها وحشدت قواها المادية والبشرية، فنزلوا حنينا، وقد أرادوها موقعة حاسمة فحشدوا كل ما لديهم من القوات (1) والأموال والنساء والأبناء حتى يستقتلوا فلا يفكر أحد منهم في الفرار ويترك أهله وماله. واستنفروا معهم غطفان وغيرها (2). وكان يقود الجموع مالك بن عوف النصري- الذي اجتمع إليه بنو نصر قومه، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وقليلمن بني هلال، وعدد من بني عوف بن عامر، وعمرو بن عامر، وتخلف من هوازن كعب وكلاب، أما ثقيف فقد التحقت بهم كلها مع أحلافها بالإضافة إلى بني مالك (3)

1) البخاري ، الصحيح 5/ 130- 131، مسلم ، الصحيح 2/ 735.
2) البخاري ، لصحيح 5/ 130- 131، مسلم ، الصحيح 2/ 735، الطبري ، تاريخ 3/ 70.
3) ابن إسحاق ،المغازي ص 571، الحاكم ، المستدرك 3/ 48، ابن هشام ، السيرة 4/ 414.

وقد بلغ تعداد قوات المشركين هذه عشرين ألف مقاتل (1) ، وقد رتب مالك بن عوف قواته في صفوف حسنة، جعل الخيالة في المقدمة ثم الرجالة، وخلفهم حشد النساء والأولاد والأنعام والأثقال (2).بلغت رسول اللّه فأخبار التحشدات التي جمعتها قوى الشرك لمواجهة الإسلام، وأراد جمع المعلومات الدقيقة عنهم، ولذلك فإنه بادر بإرسال عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم، فارتحل إليهم ومكث فيهم يوما أو يومين قبل أن يعود بأخبارهم إلى النبي ص (3).لقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ص وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه فاته شئ مهم جداً إذ لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله ص ؛ لأن هذا الأمر ليس وحياَ من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي ص جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو(4).

---

1) الواقدي ، المغازي 3/ 893.
2) مسلم ، الصحيح 2/ 736 (حديث 1059).
3) الذهبي ،المغازي ص 571- 72، الحاكم ، المستدرك 3/ 48.
4) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص369.

استعدادات الجيش الإسلامي :

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة عن المشركين بدأ النبي ص بالاستعدادات المطلوبة لمواجهتهم وسعى ف لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا، وتكفل ف بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي ص قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم -أو قال فادفع إليهم- ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا، أو أقل من ذلك» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي ص: «نعم»(1) وفي رواية: أن رسول الله ص استعار منه يوم حنين دروعا فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: «لا، بل عارية مضمونة» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله ص أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم(2).واستدان أربعين ألف درهم من حويطب بن عبد العزى» ، وقبل عون نوفل بن الحارث بن عبد المطلب له بثلاثة آلاف رمح (3)

1) أبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية، (826/3) رقم 8566.
2) أبو داود، كتاب البيوع والإجارات، باب تضمين العارية (823/3) رقم 8562.
3) ابن عبد البر، الاستيعاب 1/ 385.

وكان جيش الفتح في مكة مستعدا إذ لم يلق مقاومة تذكر في فتح مكة، كما أن إقامته في مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يوما قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع في الروح المعنوية بما منحه الله من نصر، ولذلك فإنه كان مهيأ لمواجهة عدوان المشركين، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبي ص في اليوم الخامس من شوال سنة 8 هـ ميمما نحو تجمعات المشركين في حنين (1).وكان قوام جيش المسلمين عشرة آلاف -وهم من خرجوا معه من المدينة- وألفان من مسلمة الفتح؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفا، عن أنس بن مالكا- قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي ص يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء(2)وهم ألفان(3) فبلغ عدد قوات الجيش الإسلامي اثنى عشر ألف مقاتل، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال في حياة النبي ص حتى هذه الغزوة (4)، وكان النبي ص حريصا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو (5).

---

1) ابن هشام ، السيرة 2/ 437، البيهقي ، السنن 3/ 151، النسائي ، السنن 3/ 100، ابن حجر ، فتح الباري 2/ 562.

2) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي ص بعد فتح مكة وخلى سبيلهم.

3) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (735/2) رقم 1059.

4) الواقدي ، المغازي 3/ 890، الهيثمي ، كشف الأستار 2/ 346- 347، ابن إسحاق: ابن هشام ، السيرة 4/ 124، البيهقي ، دلائل 5/ 123.

5) أبو داود ، السنن 1/ 210، 2/ 9، وانظر ابن حجر ، الإصابة 1/ 86.

ولقد كان لوجود «الطلقاء» من أبناء مكة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام آثاره السلبية فقد رأى بعضهم أثناء تقدم الجيش الإسلامي نحو حنين شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله: أجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط)، فقال رسول الله - ص -: الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [سورة الأعراف:138] ، والّذي نفسي بيده لتركبنّ سنن من قبلكم» (1).وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم ولكن النبي ص - أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام(2)،

1) الترمذي ، السنن 3/ 321- 322، النسائي ، السنن الكبرى (تحفة الاشراف (11/ 112، حديث 15516)، أحمد المسند 5/ 218، ابن كثير ، التفسير 2/ 243.
2) السيرة النبوية الصحيحة (497/2).

وقد سمح لهم الرسول ص المشاركة في الجهاد لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماماً من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار(1).

ومن هذا الموقف يتبين لنا :

أن المجتمع الجاهلي وصل إلى الدرك الأسفل في فساد الاعتقاد والجهل بحقائق التوحيد والبعد عن المنهج السوي. كما يدل على أن تعليق الأسلحة على ذات أنواط هذه مع أن ظاهره لا شيء فيه تابع للباعث عليه وهو الاعتقاد، ولذلك اعتبر هذا الفعل اتخاذ إله من دون الله كما أنكر عليهم رسول الله - ص - بقوله: قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة. فيه معجزة نبوية حيث أخبر - ف - بأن أمته ستتبع سنن الأمم الماضية، وقد وقع ما أخبر به - ف - ، وما يشاهد في حياة المسلمين اليوم من انحراف وتقليد وتبعية في مختلف جوانب الحياة دليل ظاهر على هذه المعجزة.
فيه تحذير شديد من إتباع أهل الأهواء والزيغ من الأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم(2).

1) التاريخ الإسلامي للحميدي (62/8).
2) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ص134

ومن تلك الآثار السلبية، ما أصاب بعض المسلمين من غرور وإعجاب بكثرتهم، فقال أحدهم: «لن نغلب من قلة»، وقد أصاب هذا الشعور آخرين منهم مما استحقوا معاقبة اللّه لهم فأذاقهم مرارة الهزيمة في المواجهة الأولى في حنين، وعاقبهم وبيّن لهم أن النصر هو من عند اللّه، وبأن شعورهم بالزهو لكثرتهم كان سببا في ذلك الدرس القاسي، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [سورة التوبة:25] ولقد انتبه النبي ص إلى ذلك الانحراف، فأكد لهم أن النصر من عند اللّه، وأنه يفتقر لربه ويدعوه وحده فقال ف: «اللّهمّ بك أحول، وبك أجول، وبك أقاتل»، كما قص على أصحابه قصة النبي الذي أعجب بكثر أمته فابتلاهم اللّه بالموت، فكان إدبارهم في المواجهة الأولى والأهوال التي واجهوها قد أرجعتهم إلى التصور الصحيح وإفراد التوكل على اللّه سبحانه ، فقد ذكر الصحابة "أن رسول الله - ص - كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا يا رسول الله: إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال: لن يروم(1)

1) لن يروم هؤلاء شيء: أي لن يكافئ، أو لن يقوم لهؤلاء شيء.

هؤلاء شيء، فأوحى الله إليه أن خير أمتك في إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم   فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت، فأرسل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً. قال رسول الله - ص - : فأنا أقول الآن - حيث رأى كثرتهم - : "اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل".(1).هكذا أخذ الرسول - ص - يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة(2).وهذا الموقف يبين مدى صلة رسول الله - ص الله عليه وسلم - ربه وافتقاره إليه في جميع حركاته وسكناته، وأنه يستبعد منه أن يغتر بكثرة من معه، بل كان دأبه الخضوع والتواضع لله، والتوكل عليه في كل شؤونه، ومقام النبوة أعلى وأرفع من أن يتصور وقوع مثل هذا منه - ف واستقراء سيرته - ف - وغزواته يدل على أن ما أصاب المسلمين من انكسار أمام أعدائهم كان مصدره مخالفة بعض أتباعه - ف - لأوامره وتوجيهاته العسكرية، كما حصل في غزوة أحد،

1) أحمد: (المسند 332/4 و333 و16/6- 18). والسنن الكبرى للبيهقي 153/9، والطبري: تهذيب السنن والآثار، حديث (159 و160). الدارمي- السنن 5/ 135

2) المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، ص199.

وكما حصل في غزوة حنين، فإن الروايات صحتأنه ف وجه النصح والتنبيه للمسلمين أن لا يغتروا بكثرة عددهم. وكان ف يخشى أن يغتر المسلمون ويعجبوا بكثرتهم، فأراد أن يذكرهم بما حصل لمن قبلهم من الأمم من عقوبة بسبب الاغترار والإعجاب بالكثرة. والحقيقة أن تصرفات بعض الأعراب والطلقاء لم تكن تهمهم نتائج الصراع ومدلولاته بقدر ما كان يعنيهم الحصول على الغنائم (1)، وكذلك بعض زعماء قريش الذين كانوا يقفون في مؤخرة جيش المسلمين يراقبون تطور المعركة وينتظرون معرفة المنتصر فيها (2).

تعبئة الجيشين :

كانت قوات المشركين قد سبقت المسلمين إلى وادي حنين، فاختاروا مواقعهم، ووزعوا قواتهم، وأحكموا خطتهم التي اعتمدت على رفع الروح المعنوية لدى جنوده بالخطب والشعارات فوقف مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف خطيباً في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، فقال: إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً(3)، لا علم لهم بالحرب فينَصر عليهم(4).

---

1) البخاري ، الصحيح 4/ 25، مسلم ، الصحيح 3/ 1401.
2) ابن كثير،البداية والنهاية 4/ 368، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ،1 /376
3) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.
4) مغازي الواقدي (893/3).

ثم أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، فقال لهم فإذا كان في السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم صفوا صفوفكم، ثم تكون الحملة منكم (1). وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل -من وجهة نظره- إذا شعر أن أعزّ ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفاً ما وراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك ا قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حنيناً فجاء المشركون بحنين صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم(2). ثم أمرهم بتجريد السيوف وكسر أجفانها ، فقال لهم : واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا (3).

وقد جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت(4).وعمل مالك بن عوف علي الاستفادة من طبوغرافية الموقع وثناياه وأشجاره وانحدار طريق المسلمين إليهم،

1) مغازي الواقدي (893/3).
2) مغازي الواقدي (893/3).
3) مغازي الواقدي (893/3).
4) مجمع الزوائد (179/6-180؛ المستدرك للحاكم (48/3-49) صحيح الإسناد.

وعلى المفاجأة ومباغتة المقاتلة المسلمين بالنبال بهدف إبادتهم، وكانت عنده معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فنصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وعنايته(1).وكان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين،لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم،أما المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضعف(2).وقد آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى-بفضل الله تعالى- ثم بثبات رسول الله ص حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم(3).وكان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوزاني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك(4)

1) مغازي الواقدي (893/3).
2) مغازي الواقدي (893/3).
3) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص252.
4) غزوة حنين للشيخ محمد احمد باشميل، ص128-131.

.وحاص الأمر أن معنويات المشركين كانت عالية بسبب كثرتهم وشجاعتهم وخبراتهم القتالية (1).وعلى الجانب الإسلامي، عبأ النبي ص جيشه بالسّحر وعقد الألوية والرايات ورتب الجند على هيئة صفوف منتظمة، واستقبل بجيشه وادي حنين (2)، وانحدروا مع بزوغ الفجر تتقدمهم على المجنبات الخيالة بقيادة خالد بن الوليد (3) ، وكان المقاتلة من بني سليم في طليعة القوات الإسلامية منذ خروجها من مكة (4).

بدء المعركة :

اندفع المسلمون نحو جموع هوازن، فانكشفوا، فانكب المسلمون على ما تركوه من الغنائم، وبينما هم منشغلون بذلك، نفذت هوازن الخطوة الثانية من خطتها فبتغتوا المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، وسرعان ما عادت قواتها لتستقبل المسلمين، في الوقت الذي ظهرت قواتها الكامنة فأمطرتهم بوابل عنيف من السهام من الجانبين «ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما كانوا يخطئون» (5)، وفوجيء المسلمون وتساقط شهداؤهم (6)

---

1) ابن كثير ،البداية والنهاية 4/ 330، الواقدي ، المغازي 3/ 893، وانظر ابن هشام السيرة ، 2/ 442، أحمد ،المسند 3/ 376.
2) الواقدي ، المغازي 3/ 895- 7.
3) البخاري ، الصحيح 5/ 130- 131، مسلم ، الصحيح 2/ 735.
4) الواقدي ، المغازي 3/ 896- 897.
5) البخاري ،الصحيح 4/ 35 (حديث 4317)، مسلم ، الصحيح 3/ 1400- 1401 (حديث 1776).
6) البخاري ، الصحيح (الفتح حديث 4315)، مسلم ، الصحيح 3/ 1398 (حديث 1775).

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين لا يلوون على شيء، حيث انكشفت خيالة المسلمين في البداية ثم اتبعهم المشاة، ثم بقية الجيش، واستمر القتال في هذه الجولة من الفجر إلى الليل ثم استمرت طوال ذلك الليل، وتقدم المصادر الموثقة معلومات مفصلة عن الصعوبات التي واجهها المسلمون من الحر الشديد، والأرض الرملية، وارتفاع الغبار في وجوههم مما حد من قدرتهم على الرؤية (1).ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول - ص - ونفر قليل في الميدان يتصدّون لهجمات المشركين ونترك العباس عمّ الرسول - ص - يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول اللّه ص يوم حنين.فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب رسول اللّه ص فلم نفارقه. ورسول اللّه ص على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذاميّ. فلمّا التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول اللّه ص يركض بغلته قبل الكفّار. قال عبّاس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول اللّه ص أكفّها إرادة أن لا يسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول اللّه ص. فقال رسول اللّه ص: «أي عبّاس ناد أصحاب السّمرة» (2). فقال عبّاس: (وكان رجلا صيّتا) فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمرة؟ قال: فو اللّه لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبّيك يا لبّيك. قال: فاقتتلوا والكفّار. والدّعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار.

---

1) أحمد ، المسند 5/ 286، الهيثمي ، مجمع الزوائد 6/ 182.

2) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان. ومعناه نادهم.

قال: ثمّ قصرت الدّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج. يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول اللّه ص وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول اللّه ص: «هذا حين حمي الوطيس (1) قال: ثمّ أخذ رسول اللّه ص حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفّار.ثمّ قال: «انهزموا، وربّ محمّد». قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فو اللّه ما هو إلّا أن رماهم بحصياته. فما زلت أرى حدّهم كليلا وأمرهم مدبرا(2).

لقد كان ذلك درسا قاسيا عاقب اللّه تعالى به أولئك الذين أصابهم العجب والزهو ووصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى:لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [سورة التوبة:25]

1) هذا حين حمى الوطيس: قيل الوطيس هو التنور المسـجور. وهذه اللفظة من فصـيح الكلام وبديعه الذي لم يسـمع من أحد قبل النبي ص

2) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (1399/3) رقم 1772.

سبب هزيمة المسلمين في بداية المعركة:

إن انكشاف المسلمين وتوليهم أمام عدوّهم له عدة أسباب، منها: ما يعود إلى استعداد العدو العسكري، ودقة ممارسته للحروب والفروسية، وإحكام الخطة واختيار الموقع المناسب لهجومهم المباغت دون أن يشعر بهم المسلمون، مما أدى إلى تفوقهم وتقدمهم مبدئيا، وقد صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة كما سنوضح ذلك.ومنها ما يعود إلى المسلمين أنفسهم، فقد صدر من بعض أفراد الجيش الإسلامي في هذه الغزوة أمور أدت إلى انكسار المسلمين وتقهقرهم أمام هوازن، كاغترار بعضهم بكثرتهم، وطلب البعض الآخر منهم ذات أنواط ينوطون بها أسلحتهم مضاهاة منهم للكفار الذين لهم ذات أنواط. وتهور البعض الآخر كذلك وخروجهم إلى هوازن دون أن يستكملوا وسائل القتال، وانكباب بعضهم على جمع الغنائم وحيازتها قبل أن يستسلم الكفار استسلاما كاملا.هذا مجمل الأسباب التي رجحت بها كفة العدو على كفة المسلمين في بداية المعركة. وسأحاول تحليل هذه الأسباب وإيضاحها مستنداً إلى الروايات الواردة في ذلك.

أولا: أسباب نجاح هوازن في بادئ الأمر:

أ- كثرتهم الهائلة، فقد جندوا جنودا لم يواجه المسلمين مثلها في غزواتهم مع رسول الله- ص - ، التي سبقت هذه الغزوة.

ب- بث الحماسة والقوة المعنوية في نفوسهم والتزامهم بتوجيهات قائدهم.

ج- سبقهم إلى وادي حنين وتحصنهم بين أشجاره ومضايقه وبث الكتائب التي تكمن في جميع نواحيه.

هذه بعض المرجحات التي كانت في جانب المشركين أدت إلى تفوقهم في أول الأمر.وخاصة خطبة مالك بن عوف فيهم، خطبته الحماسية التي كان لها أثرها الفعال ووقعها في نفوسهم، حيث أثار فيهم النخوة والشجاعة والبسالة، الأمر الذي جعل هوازن يستميتون في ساحة المعركة، يتساقطون واحدا تلو الآخر وهم مصممون على الانتصار(1).

1) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، 1 /147

ثانيا: بيان الأسباب الداخلية لاندحار المسلمين في أول الأمر:

أ- اغترار بعض المسلمين بكثرتهم، كما تقدم في حديث: "لن نغلب اليوم عن قلة".فكانت هذه المقالة بادرة سوء تألم منها رسول الله - ص - لأن فيها إعجاب بالعدد والكثرة وغفلة عن الله الذي لا يكون النصر للمسلمين إلاّ من عندهوَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [سورة آل عمران:126]

ب- عدم تمكن عقيدة التوحيد في بعض المسلمين كما في حديث أبي واقد الليثي في قول بعضهم: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط".

وكانت هذه الكلمة مؤلمة لسمع الرسول - ص - مما يدل على وجود حفنة من هذا الجيش لم يصلوا بعد إلى المستوى الإيماني المطلوب، لحداثة عهدهم بالإسلام.

ج- الخفة والعجلة التي حصلت من بعض القوم وشبانهم، حيث خرجوا إلى هوازن قبل استكمال وسائل الحرب فلم يستطيعوا الوقوف أمام سهام المشركين ونبالهم، وهذا ما صرح به حديث البراء بن عازب - ا- .

د- فرار الأعراب وعدم ثبوتهم أمام المشركين مما شجع العدو في مواصلة مطاردة المسلمين.

هـ- انهزام الطلقاء.

و- انكباب المسلمين عل جمع الغنائم واشتغالهم بها، وذلك أن المسلمين حملوا على الكفار فلاذوا بالفرار تاركين أموالهم وعتادهم، فظن المسلمون أن الكفار انهزموا إلى غير رجعة، فأقبلوا على جمع الغنائم وحيازتها، فانتهز المشركون غفلة المسلمين فانهالوا عليهم من كل صوب يضربون ويطعنون، فانكشف المسلمون أمام المشركين لا يلوي أحد منهم على أحد، والكفار في آثارهم يطاردونهم.

ز- إن ما حصل للمسلمين في غزوة حنين من انكسار أمام الأعداء، كان مصدره أمر الله وقدره، وذلك ليطأطئ رؤوس أقوام رفعها الإعجاب بكثرتهم وقدرتهم القتالية، فأدبهم الرب عز وجل ليعلمهم أن النصر من عنده سبحانه وتعالى، وأن كثرتهم وجموعهم لا تجدي عنهم شيئا(1).والحقيقة أن من سنن الله الكونية التي لا تتخلف أن الله سبحانه وتعالى، جعل للنصر والظفر على الأعداء أسبابا، كما جعل للهزيمة والانحدار أسبابا، فمن أخذ بأسباب النصر جاءه النصر بإذن الله، ومن تخلى عنها أو عن بعضها جاءته الهزيمة والانتكاس. والعبرة التي يجب تقريرها والتأكيد عليها في هذا المبحث أيضا أن الجيش الإسلامي الذي يكون قائده رسول الله - ص - ، إذا حصل منه تقصير في جنب الله، فإنه يعاقب بالهزيمة ولا يخرج عن سنة الله في ذلك، فلا ينتصر وهو غير مستوجب لشروط النصر وأسبابه.

1) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، 1 /155

فوقوع مثل هذا في جيوش المسلمين المقصرين في حق الله عليهم، والذين قوادهم من البشر العاديين أولى وأحرى، وإنه لدرس عظيم تقدمه لنا سيرة سلفنا الصالح وحياة ذلك الرعيل الأول، الذين عاش بين ظهرانيهم رسول الله - ص - ، والوحي ينزل عليه، وقد أذاقهم الله حلاوة النصر من عنده إذا صبروا وصدقوا واستكملوا عناصر النصر المادية والمعنوية، ولم يغفلوا عن الله.كما أذاقهم مرارة الهزيمة، إذا هم غفلوا عن الله وتنازعوا وركنوا إلى الدنيا وبيّن لهم أن ذلك الانهزام ما جاءهم إلا من عند أنفسهم إما إعجابا بكثرتهم أو بإقبالهم على حطام الدنيا، أو بغير ذلك من الأسباب. والحاصل أن انتصار المسلمين مرتبط بأسباب وموانع، فإذا توفرت الأسباب وانتفت الموانع حصل النصر بإذن الله قل العدد أو كثر، كما قال تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [سورة البقرة:249]

على أنه قد يقال بعدم التعارض مطلقا بين ما وقع في حنين، وما يتضمنه قولهف: "لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة"(1) ذلك أن ما وقع في حنين ليس هزيمة كسر فيها المسلمون ولم يقم لهم بعدها قائمة في هذه المعركة، وإنما الذي حدث هو إدبار في بادئ المعركة، أعقبه بعد ذلك انتصار عظيم على الكفار، وغنيمة لما معهم، فمثل هذه الحاللا يقال فيها إنها هزيمة نهائية، وعليه فلا تعارض، وهذا أظهر واوجه. (2).

نزول النصر من عند الله :

أما النبي ص فقد ثبت وصمدت معه فئة قليلة من الصحابة، وكان يركب بغلته(3)، وينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم إلى الثبات، وهو يدفع بغلته نحو العدو وهو يردد: «أنا النّبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب»، ومعه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به بين جموع العدو، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيرا في الوقت الذي ابتعد معظمهم مدبرين ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (4)

1) ونص الحديث: "عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة". (مغازي الواقدي 890/3).
2) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، 1 /158
3) مسلم- الصحيح 3/ 1398- 1400، القسطلاني- المواهب اللدنية 1/ 163، الواقدي- المغازي 3/ 895- 6.
4) مسلم- الصحيح 3/ 1398- 1400، الحاكم- المستدرك 3/ 255، أبو يعلى- المسند 3/ 338 (رقم 303)، ابن هشام- السيرة 2/ 442.

ولما طلب الرسول ص من عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي الناس بالثبات وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان فأسرعوا إليه عجلين، ثم نادى الأنصار ثم بني الحارث بن الخزرج فتلاحقوا نحوه حتى أصبحوا بين ثمانين ومائة مقاتل، عادوا إلى قتال هوازن وحلفائها، وكانت جولة جديدة أخلصوا فيها النية وحسن التوجه إلى اللّه وأظهروا فيها من الشجاعة وصدق العزيمة والثبات ما مكنهم من الصمود بوجه المشركين (1)، وكان النبي ص يدعو ربه ويسأله النصر، وهو يقول: «أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب اللّهمّ نزّل نصرك» (2).وحين غشيه الأعداء ترجل عن بغلته وقاتل، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته (3). وعند ما رأى من فر من المسلمين موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم عادوا إلى المعركة والتحقوا بقوات الرسول ص وهم ينادون: لبّيك لبّيك! حتى إن بعضهم لم ينتظر حتى يتمكن من أن يلوي عنان بعيره ليعود به، فهو يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه ويعود راكضا حتى ينتهي إلى موقع رسول اللّه ص فيجالد المشركين (4).واشتد القتال وتكاتفت قوى الإيمان والخير فقال النبي ص: «هذا حين حمي الوطيس» (5).

---

1) مسلم- الصحيح 3/ 1398- 1400، ابن هشام- السيرة 2/ 444- 5، الصنعاني- المصنّف 5/ 380- 81، ابن سعد- الطبقات 4/ 18.

2) مسلم- الصحيح 3 (1401).

3) البخاري- الصحيح 4/ 35- 53، مسلم- الصحيح 3/ 1400- 1401 (حديث 1776)، النووي- شرح صحيح مسلم 4/ 401- 402.

4) مسلم- الصحيح 3/ 1398- 1400، ابن هشام- السيرة 2/ 444- 445.

5) مسلم- الصحيح 3/ 1398- 1400.

وأخذ النبي ص قبضة من تراب وحصيات من الأرض فرمى بهما وجوه الكفار وهو يقول: «شاهت الوجوه» (1)؛ فما كان منهم أحد إلّا ملئت عينه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، والرسول ص يقول: «انهزموا وربّ محمّد» كررها مرتين (2). وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلا في الجولة الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا اللّه عليه، فانهارت قوى الشرك، وفرت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مخلفة وراءها أعدادا كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلفت شراذم من قواتها تمكن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبي ص بتعقب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين في القتلى خلال هزيمتهم أعظم من خسارتهم خلال المعركة. وقد نهى النبي ص عن قتل النساء والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، كما نهى عن قتل الأولاد والذرارى حين بلغه أن بعضهم قد قتل خلال المعركة، فقال: "ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ألا لا تقتل الذرية ثلاثا". قال أسيد: "يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين؟، فأجاب النبي ص: « أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها" » (3).

1) مسلم- الصحيح ، 3/ 1401- 1402.
2) مسلم- الصحيح ، 3/ 1402.
3) أحمد- المسند 3/ 435.

عوامل انتصار المسلمين في حنين:

كانت معركة حنين تجربة عسكرية خطيرة في معارك المسلمين، وكانت أيضا مدرسة تربوية عظيمة إذ ذاق فيها المسلمون مرارة الاندحار، ووطأة الفرار أمام زحف المشركين ونبالهم وعظيم تخطيطهم واشتداد هجمتهم عليهم في بداية المعركة هجمة رجل واحد.كما أذاقهم الله في هذه المعركة نفسها حلاوة النصر وبهجة الغلبة على أعدائهم، وتلك إحدى الحسنيين، وهذا من خصائص معركة حنين التي كانت المعركة الفاصلة الأخيرة بين المسلمين والمشركين في الجزيرة كما كانت بدرا المعركة الفاصلة الأولى بين الطائفتين. وفي قادم السطور نبحث في عوامل انتصار المسلمين، والتي يمكن أن تكون على النحو التالي:ثبات الرسول - ص - في ساحة المعركة يناشد ربه النصر والعون، ويعلن لأعداه من هوازن وغيرهم بأنه نبي حقا لا ينبغي له أن يَفِرّ مهما تكاثرت جموعهم، فكان يركض بغلته نحوهم وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قوله ف: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب (1)"، فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه يقول أنا النبي، والنبي لا يكذب فلست بكاذبٍ فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر، حق فلا يجوز علي الفرار(2). الثبات في المعركة حين لقاء العدو وذكر الله عز وجل بحضور قلب وإلحاح في الدعاء، وقد ذكر الله في هذين العاملين في قوله سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [سورة الأنفال:45]ولا ينتصر المسلمون على عدوهم إلا إذا حققوا في أنفسهم التحلي بهذين العاملين وغيرهما من عوامل النصر التي ذكرها الله مادية ومعنوية.

---

1) وأما نسبته ف إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله" فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس لما رزق من نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شابا، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب، كما قال ضمام بن ثعلبة لما قدم: "أيكم ابن عبد المطلب" وقيل: لأنه كان اشتهر بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجل يدعو إلى الله ويهدي الله الخلق على يديه ويكون خاتم الأنبياء، فانتسب إليه ليتذكر ذلك من كان يعرفه، وقد اشتهر ذلك بينهم، وذكره سيف بن ذي يزن قديما لعبد المطلب قبل أن يتزوج عبد الله آمنة، وأراد النبي - ص - تنبيه أصحابه بأنه لابد من ظهوره وأن العاقبة له، لتقوى قلوبهم إذا عرفوا أنه ثابت غير منهزم. (ابن حجر: فتح الباري 31/8-32، والنووي: شرح صحيح مسلم 406/4، والزرقاني: شرح المواهب 17/3، 20- 21 وزاد: وفي الروض قال الخطابي: إنما خص عبد المطلب بالذكر في هذا المقام تثبيتا لنبوته وإزالة للشك لما اشتهر وعرف من رؤيا عبد المطلب المبشرة به - ف -، ولما أنبأت به الأحبار والكهان فكأنه يقول: أنا ذاك فلا بد ممّا وعدت به لئلا ينهزموا عنه ويظنوا أنه مغلوب أو مقتول، فالله أعلم أراد ذلك رسوله أم لا. إهـ.
ثم قال الزرقاني: "فليس هذا من الافتخار بالآباء في شيء، وبفرض تسليمه فهو جائز في الحرب لإرهاب العدو".
وانظر: الروض الأنف للسهيلي 206/7- 207، والمواهب للقسطلاني 163/1، وفيض القدير للمناوي 38/3.

2) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ،1 /186

رجوع المسلمين إلى المعركة:

لقد عاد المسلمون إلى المعركة مسرعين حين رأوا ثبات نبيهم - ف - وحين سمعوا النداء بالرجوع كما تبينه الرواية الآتية:

فلما نادي العباس بن عبد المطلب قائلاً أين أصحاب السمرة؟ عادوا مسرعين ، يقول العباس : فو الله! لكأن عطفتهم(1)، حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! (2) . قال النووي: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدا، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتح عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخفاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله السكينة على المؤمنين كما ذكر الله تعالى في القرآن". (3). المعجزة النبوية التي حصلت في هذه المعركة وذلك أن رسول الله - ص – نظر إلى اجتلاد المسلمين واشتباكهم مع المشركين فقال "هذا حين حمي الوطيس" ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار فامتلأت أعينهم ترابا من تلك الرمية فهزمهم الله عز وجل .

---

1) قوله: "لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها: أي عودهم إلى أماكنهم وإقبالهم إليه - ف - عطفة البقرة على أولادها، أي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمهات حين حنت على أولادها".

2) النووي: شرح صحيح مسلم 402/4.

3) مسلم: الصحيح 1398/3- 1400 كتاب الجهاد والسير

تأييد الله للمسلمين بجند من عنده:

وكان هذا التأييد السماوي بعد أن أدب الله المؤمنين الذين اغتروا وأعجبوا بكثرتهم وبعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وذلك بسبب ما حل بهم من الخوف عندما ركب الأعداء ظهورهم يسوقونهم، فركبت إبل المسلمين بعضها بعضا وولوا مدبرين، إلاّ رسول الله - ص - وطائفة يسيرة معه، وفي هذه الحال الحرجة أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا من عنده تقوية لقلوب المؤمنين وتثبيتاً لهم، ولقد صوّر القرآن الكريم هذا أتم تصوير فقال: جل ذكره: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [سورة التوبة:25] قال الشوكاني عند تفسير هذه الآيات قوله: ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) [سورة التوبة: 26]، أي: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين، بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا، وقيل الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا، ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)[سورة التوبة: الآية 26]

قال: هم الملائكة، بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، والإشارة بقوله إلى التعذيب المفهوم من عذب وسمى ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم، وتعظيما له، وقوله ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة: الآية 27]

أي من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام، يغفر لمن أذنب فتاب، {الرَحِيمٌ} بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه(1). ويتبن من الروايات السابقة أن الله سبحانه أيد عباده المؤمنين بجنود من عنده لينصر بهم أولياءه ويخذل بهم أعداءه لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وسواء قاتلت الملائكة فعلا في معركة حنين أو لم تقاتل فإن فائدة نزو لهم تحقق ولاشك سواء كان ذلك عن طريق القتال الفعلي أو عن طريق أمر آخر يريده الله من إنزالهم لنصرة الحق ودحض الباطل(2)

1) الشوكاني: فتح القدير 348/2.
2) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ،1 /189

ما أسفرت عنه معركة حنين من ضحايا وغنائم:

لقد فقد المشركون في هذه المعركة من رجالهم وأبطالهم وأهل النجدة فيهم ما يزيد على مئات القتلى ، ذلك أن معركة حنين من المعارك الفاصلة التي لم ير المسلمون مثلها ضراوة وشدة في عهدهم الأول.لقد استمات فيها المشركون وقاتلوا ببسالة نادرة فقتل من بني مالك وحدهم سبعون رجلا يتساقطون في ساحة المعركة واحدا تلو الآخر، (1)وفقدوا أفلاذ أكبادهم وأغلى أموالهم، ذلك أن مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم، وكان يهدف من رواء ذلك أن يكثر على المسلمين من ناحية وأن يحرض قومه على القتال والصمود في المعركة للدفاع عن أطفالهم ونسائهم من ناحية، وأن لا يفكر واحد منهم في الفرار. فصارت جميع تلك الأموال والنساء والنعم بأنواعها رزقا ساقه اله للمسلمين على يد هؤلاء الكفار الذين قذف الله في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وذراريهم معهم(2). ولهذا فقد كان سبي حنين كثيراً جداً ، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء(3)

1) وعند الواقدي في مغازيه 907/3 أن عدد القتلى منهم قريب من مائة رجل.
2) أبو داود الطيالسي: المسند 108/2- 109، وأحمد: المسند 190/3، 279.
3) الصنعاني- المصنف 5/ 381، ابن سعد- الطبقات 2/ 155 من رواية الزهري عن ابن المسيب مرسلا، الطبري- تاريخ 3/ 82، الذهبي- المغازي ص/ 606.

أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة (1)، أما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفا»(2)، أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة (3)، وقد حبس الرسول ص هذا السبي والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف (4).لم تكن خسائر المسلمين كبيرة خلافا للتوقعات من خلال المعلومات العامة عن إصابات المسلمين في الجولة الأولى وفرار الكثير منهم، بل إنها كانت طفيفة جدا إذا ما أدخلنا قوة المشركين واستعداداتهم وخططهم في الاعتبار وذلك من فضل اللّه وحفظه ورحمته بالمسلمين، فقد استشهد منهم أربعة شهداء (5)، وجرح عدد منهم، أشارت المصادر من بينهم إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد اللّه بن أبي أوفى وخالد بن الوليد (6)، ومما يؤكد صحة هذه الأرقام بالإضافة إلى ورودها في مرويات صحيحة، قيام المسلمين بعد الجولة الثانية بمطاردة المشركين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم توجهوا إلى حصار الطائف بعد انتهاء معركة حنين مباشرة(7).

---

1) ابن سعد- الطبقات 2/ 152.
2) ابن سعد- الطبقات 2/ 152. وكان معهم خيل وأبقار وحمير وبغال غير أن المصادر لم تذكر عددها.
3) ابن سعد- الطبقات 2/ 152.
4) أخرجه البزار كما في كشف الأستار للهيثمي 2/ 353، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن»، انظر، الإصابة 1/ 145.
5) هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، انظر: البخاري- الصحيح 5/ 126، الحميدي- المسند 2/ 398، الهيثمي- كشف الأستار 2/ 346، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح الباري 8/ 42.
6) البخاري- الصحيح 5/ 126 (حديث 4314)، الهيثمي- كشف الأستار 2/ 346، البزار- مختصر الزوائد ص/ 49-50 (رقم 816)، الحميدي- المسند 2/ 398 بإسناد صحيح.
7) أنظر : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /379

ملاحقة فلول المشركين والأحداث التاريخية التي أعقبت ذلك

لما انهزم المشركون في موقعة حنين وباءوا بالفشل انسحبوا على إثر ذلك وتفرقوا في الجبال والأودية يجرون ذيل الخزي والندامة، تاركين وراءهم كثيرا من أطفالهم ونسائهم وأموالهم، وعند ذلك أمر رسول الله ص بمطاردتهم وتعقبهم تأديبا لهم حتى لا تسول لهم أنفسهم أن يتكتلوا أو ينقضوا على المسلمين مرة أخرى ، فلجأت مجموعة كبيرة منهم إلى أوطاس (1)، وعسكرت مجموعة أخرى منهم في نخلة (2)، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصري إلى حصونهم بالطائف، وقد لا حق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبي ص ، فبعد الفراغ من حنين أرسل النبي ص سرية لمطاردة وتعقب الفارين وجعل علي قيادتها أبي عامر الأشعري ا وكان ضمن أفرادها أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما، وذلك لمطاردة الفارين من هوازان وجشم الذين كان على رأسهم دريد بن الصِّمة الجشمي للإجهاز مبكرًا على أي تحشد آخر لهم مضاد للمسلمين، حيث التقوا بهم في وادٍ يسمى أوطاس، وهناك دارت معركة قوية بين الطرفين قتل فيها دريد بن الصِّمة. "وهزم الله أصحابه"(3) بعد أن "أفضى فيهم إلى الذرية"(4)

1) واد بين حنين والطائف
2) موضع بين حنين وسبواحة
3) ابن حجر، فتح (41/8)
4) البنا، الفتح (65/14) ، البيهقي، سنن (130/9).

وسبوا نساءهم، (1) وأصيب قائد السرية إصابةً قاتلةً إذ "رماه رجل (2) بسهم فأثبته في ركبته"(3). قال أبو موسى الأشعري ا ابن أخي أبي عامر: "فانتهيت إليه فقلت: يا عم(4)من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني ولَّى، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه(5) الماء"(6)، وكأن الجرح قد التهب على أبي عامر التهابا حادًّا عرف منه قرب منيته، فأوصى ابن أخيه أن يقرىء النبي ص منه السلام ويطلب منه أن يستغفر له، وذلك بعد أن استخلفه على قيادة السرية "فمكث يسيرا ثم مات"(7). ويرجع أبو موسى إلى النبي ص ويدخل عليه بيته، حيث يصف لنا الحالة التي وجد عليها رسول الله ص لنعرف مدى ما كان عليه من الزهد وشظف العيش، وهو الذي لو أراد لحيزت له الدنيا بأسرها.يقول أبو موسى: "دخلت عليه وهو في بيت على سرير مرمل(8)،

---

1) صحيح مسلم بشرح النووي (35/10).
2) ابن حجر، فتح (8/42-43).
3) ابن حجر، فتح (41/8).
4) انظر ابن حجر، فتح (8/42-43).
5) نزا منه الماء: أي ظهر وارتفع وجرى ولم ينقطع. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (60/16).
6) ابن حجر، فتح (41/8).
7) ابن حجر، فتح (41/8).
8) ابن حجر، فتح (43/8).

وعليه فراش وقد أثَّر رمال السرير بظهر رسول الله ص وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله ص بماء فتوضأ ثم رفع يديه ثم قال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس. فقلت: ولي يا رسول الله ص استغفر، فقال النبي ص اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما" (1)(2). بقي أن نقول أنه لم يكن بالإمكان إعطاء رقم دقيق لعدد قتلى المشركين الإجمالي في معركة حنين فقد كان عدد قتلى بني مالك من ثقيف في الجولة الثانية من حنين قد بلغ اثنين وسبعين قتيلا وقتل من الأحلاف قتيلان، وقتل بأوطاس كما أسلفنا ثلاثمائة من بني مالك، وتشير المصادر إلى أنه قتل خلق كثير من فروع هوازن الأخرى وخاصة من بني نصر بن معاوية وغيرهم ممن قتلوا أثناء فرارهم إلى نخلة من حنين(3).

---

1) النووي، صحيح مسلم (60/16).

2) ابن حجر، فتح (42-41/8) ، صحيح مسلم بشرح النووي -كتاب فضائل الصحابة (60-59/16). ورواه أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (176-177/21). ابن هشام، سيرة (454-457/4)، والواقدي، مغازي (915/3)، وابن عبد البر، درر (241) والعامري، بهجة المحافل (425-428/1)، والبيهقي، سنن (51/9، 91، 92، 241) ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 221

3) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /380

موقف الشيماء :

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله، الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله - ص - من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله - ص - قالت: يا رسول الله! إني أختك من الرضاعة، قال ما علامة ذلك؟ قال عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك(1)، وعرف رسول الله - ص - العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وان أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومي فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي(2)، ومتعها رسول الله - ص - فأسلمت، وأعطاها رسول الله - ص - ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء(3).

---

1) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.
2) انظر: البداية والنهاية (363/4)؛ السيرة النبوية الصحيحة (506/2).
3) ابن إسحاق- سيرة ابن هشام 2/ 458، البيهقي- دلائل النبوة 3/ 56، الطبري- جامع البيان 10/، 101 وعن لقاء حليمة السعدية، انظر البخاري- الأدب المفرد ص/ 440، أبو داود- السنن 2/ 630، الحاكم- المستدرك 3/ 618، 4/ 164، ابن كثير- البداية 4/ 364، السيرة النبوية للندوي، ص358.

غزوة الطائف

كان لثقيف مواقف عدائية ضد المسلمين منذ ظهور الإسلام، ومن أبرزها موقفهم الآثم من رسول الله ص عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل ويطلب منهم نجدته حتى يؤدي رسالة ربه، فردوه ردا قبيحا وأغروا سفهاءهم وصبيانهم بمطاردة رسول الله ص ورميه بالأحجار حتى أدموا قدميه(1) ومن تلك المواقف تكتل ثقيف مع قريش في صلح الحديبية، ونصرهم لها على المسلمين ولما دانت قريش بالإسلام بفتح مكة المكرمة ثارت ثائرة هوازن فأخذت في حشد قواتها للزحف على المسلمين، فكانت ثقيف أول من لبى دعوتها وانحاز إلى جانبها، فخرجت الأحلاف من ثقيف بقيادة قارب بن الأسود الثقفي، وخرجت بنو مالك بقيادة ذي الخمار سبيع بن الحارث وأخيه أحمر بن الحارث، ووقفت مع هوازن كتلة واحدة في وجه المسلمين.ولما اندحر الفريقان الهوازني والثقفي في موقعة حنين أمام جحافل المسلمين، انسحبوا من ساحة المعركة، فعسكر بعضهم بأوطاس، وبعضهم بنخلة، وتوجه بعض منهم نحو الطائف ومعه مالك بن عوف النصري، فدخلوا حصن الطائف وتحصنوا به.ولما فرغ رسول الله ص من حنين أمر بالغنائم فحبست في الجعرانة، ثم قرر ف السير بنفسه إلى الطائف(2).وأمر خالد بن الوليد أن يسير على مقدمته(3).

---

1) سيرة ابن هشام 419/1 والبداية والنهاية 135/3.
2) سيرة ابن هشام 478/2، والروض الأنف 231/7، البداية والنهاية 345/4و347 وزاد المعاد 472/3 وفتح الباري 33/8و35.
3) طبقات ابن سعد 158/2، زاد المعاد 496/3.

فتجمعت قوات المسلمين في أعقاب النصر المظفر الذي كتبه الله لهم في معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبي ص إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التي فرت من حنين، وكانت فلول ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة في الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعام كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التي تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم (1). وصل الجيش الإسلامي إلى الطائف في حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريباً من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا في الموضع الذي بنى فيه المسجد (2)، وكان القتال تراشقا بالسهام في أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد محمّاة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم .. واستخدم المسلمون المنجنيق لرمي التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات في قوات العدو في الوقت نفسه (3)

1) ابن هشام- السيرة 4/ 170- 171، ابن سعد- الطبقات 2/ 158.
2) مسلم- الصحيح 2/ 736، أحمد- المسند 3/ 157، وانظر رأي الحافظ ابن كثير- البداية والنهاية 4/ 356، ابن هشام- السيرة 2/ 478.
3) ابن هشام- السيرة 2/ 478- 483 برواية ابن إسحاق.

ومن الملاحظ أن النبي - ص - استعمل في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل مثل المنجنيق وهو من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجهّت إليه، فبحجارته تُهدّم الحصون والأبراج وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال(1).

والدبابة ، وهي من أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول - ص - لأول مرة في حصار الطائف وهي على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي(2).

غير أن هذه الآلات وعدم وجود خبراء في استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودا. ولذلك فقد وجد النبي ص أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هي في تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة في بساتينها، فأمر فبتحريق بساتين الأعناب والنخيل في ضواحي الطائف، مما كان له أثره الكبير في كسر معنوياتهم، فناشدوا النبي ص أن يدعها للّه وللرحم، فاستجاب لهم النبي ص بعد أن تحقق الهدف المنشود (3).

---

1) اللواء محمد فرج، المدرسة العسكرية الاسلامية، ص407.
2) القيادة في عهد الرسول، ص405.
3) البيهقي ، السنن الكبرى 9/ 84، الشافعي ، كتاب الأم 7/ 323.

وكان من التعليمات العسكرية أن أمر رسول الله ص مناديا ينادي، أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج جماعة فأعتقهم رسول الله ص ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة وزاد من ألمهم(1).وكان ذلك من أعظم التدابير العسكرية التي أضعفت من قوة المشركين وفتت في عضدهم ومعنوياتهم وفرقت جمعهم، فأسلم هؤلاء ، فأعتقهم النبي ص ، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم (2).

لقد صمدت ثقيف بوجه الحصار، ورغم ما واجهته من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول اللّه ص ، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيدا، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى في صفوف ثقيف التي كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية (3).لقد نجحت التدابير العسكرية التي استخدمها المسلمون بتوجيه رسول الله ص لهم وهي :

---

1) الطبقات الكبرى لابن سعد 2/158-159.

2) البخاري- الصحيح 5/ 129، أحمد- المسند 1/ 236، ابن حجر- فتح الباري 8/ 46، الصنعاني- المصنّف 5/ 301، ابن سعد- الطبقات 2/ 158- 159، وانظر ابن هشام- السيرة 2/ 485.

3) البخاري- الصحيح 8/ 20، ابن هشام- السيرة 2/ 486- 487، الواقدي- المغازي 3/ 929- 30.

الأول : الأمر بقطع أعناب ثقيف ونخيلهم وتحريقها إغاظة لهم وهزا لمعنوياتهم وكان في ذلك نكاية بالغة بهم، حتى طالبوا الرسول ص أن يدعها لله وللرحم، فلما بلغته مناشدتهم له بذلك، تركها، ولكن بعد أن أثر بدون شك في نفوس القوم وأضعف عزائمهم.

الثاني: أن الرسول ص حث المسلمين يومئذ على الرمي فقال: "من رمى بسهمفي سبيل الله فله درجة في الجنة"(1)، فكان في ذلك حافز قوي للمسلمين على التسابق في الرمي للفوز بدرجات عظيمة في الجنة حتى قال أحدهم: بلغت يومئذ ستة عشر سهما، وكانت تلك السهام الكثيرة، تنهال على ثقيف كالوابل الغزير فزلزل ذلك كفار ثقيف زلزالا شديدا وحصرهم في حصنهم وشل قدرتهم الدفاعية.

الثالث: ذلك النداء الموجه إلى العبيد الذين يعيشون تحت سيطرة سادات ثقيف "أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر"(2) فما أن بلغهم هذا النداء الإسلامي حتى تسابقوا إلى المسلمين واحدا بعد آخر طلبا للحرية ورغبة في الخلاص من ظلم جبابرة الجاهلية

1) أخرجه الحاكم (132/2 ، رقم 2560) وقال : صحيح على شرط الشيخين . والبيهقى (161/9 ، رقم 18290) .
2) الطبقات الكبرى لابن سعد ، 158/2-159.

فكانت مكافأتهم على هذه التضحية من رسول الله ص أن أعتقهم وخلصهم من رق الجاهلية وأغلالها، و أسلموا وحسن إسلامهم وحسن إسلامهم وكان في ذلك إضعاف لشوكة ثقيف وخلخلة لصفوفهم من داخلها، وكان عدد العبيد الذين نزلوا من حصن الطائف ولحقوا بالمسلمين ثلاثة وعشرين عبدا(1).

فك الحصار عن الطائف والعودة إلى الجعرانة :

ثم إن الحبيب محمد ص أمر بفك الحصار ،والعودة إلي الجعرانة ، والسبب في ذلك الوقت يرجع إلي أن الله - جل وعلا - لم يأذن في فتح الطائف حينئذ ، فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت له يا رسول الله ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف قال لم يؤذن لنا الآن فيهم وما أظن أن نفتحها الآن (2)

1) الطبقات الكبرى لابن سعد ، 158/2-159.
2) السيرة الحلبية ، 81/3

كما أن الحبيب محمد ص كان يدرك أن ثقيفاً ستأتي معلنة إسلامها وولاءها للمسلمين عما قريب بدون مشقة وقتال، ولذا فقد أشار رسول الله ص على الصحابة بترك حصار الطائف ولما رأى في أصحابه الرغبة في مواصلة القتال والتصميم على الفتح، أذن لهم في ذلك(1) وقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابتهم جراحات شديدة من وقع نبال ثقيف فأعاد رسول الله ص مقالته في ترك الحصار، ففرح الصحابة بذلك وعلموا أن ما رآه رسول الله ص هو الصواب، وسارعوا إلى الرحيل، طالبين من رسول الله ص أن يدعو على ثقيف جزاء

---

1) وكان لعمر بن الخطاب دور مهم في الاستجابة لأمر رسول الله ص بفك والعودة بالجيش ، فلما قال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وهو على حصن الطائف: يا عبيد محمد، إنكم والله ما لاقيتم أحدا يحسن قتالكم غيرنا، تقيمون ما أقمتم بشر محبس، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئا مما تريدون.

نحن قسي وقسا أبونا والله لا نسلم ما حيينا

وقد بنينا طائفا حصينا فناداه عمر: "يا ابن حبيب والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا، إنما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج، فقال أبو محجن: إن قطعتم يا ابن الخطاب حبات عنب، فإن في الماء والتراب ما يعيد ذلك".فقال عمر: "لا تقدر أن تخرج إلى ماء ولا تراب، ولن نبرح عن باب جحرك حتى تموت!"قال: يقول أبو بكر: "يا عمر لا تقل هذا، فإن رسول الله ص لم يؤذن له في فتح الطائف، فقال عمر: وهل قال لك هذا رسول الله؟"فقال: نعم، فجاء عمر إلى رسول الله ص فقال: "لم يؤذن لك يا رسول الله في فتحها؟ قال: "لا".قال: أفلا أؤذن في الناس بالرحيل! قال رسول الله ص: "بلى" فأذن عمر بالرحيل، فجعل المسلمون يتكلمون، يمشي بعضهم إلى بعض، فقالوا: ننصرف ولا نفتح الطائف!لا نبرح حتى يفتح الله علينا؟ والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا قد لقينا جمع مكة وجمع هوازن، ففرق الله تلك الجموع! وإنما هؤلاء ثعلب في جحر، لو حصرناهم لماتوا في حصنهم هذا! وكثر القول بينهم والاختلاف، فمشوا إلى أبي بكر فتكلموا، فقال أبو بكر - ا -: الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء، فكلموا عمر فأبى وقال: قد رأينا الحديبية ودخلني في الحديبية من الشك ما لا يعلمه إلا الله، وراجعت رسول الله ص يومئذ بكلام ليت أني لم أفعل، وأن أهلي ومالي ذهبا ثم كانت الخيرة لنا من الله فيما صنع، فلم يكن فتح كان خيراً للناس من صلح الحديبية - بلا سيف دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل - من يوم بعث رسول الله ص إلى يوم كتب الكتاب، فاتهموا الرأي، والخيرة فيما صنع رسول الله ص ولن أراجعه في شيء من ذلك الأمر أبدا! والأمر أمر الله وهو يوحي إلى نبيه ما يشاء!. أنظر : مغازي الواقدي 3/935-936.

صنيعهم السيئ ضد المسلمين، فقال ف "اللهم اهد ثقيفا"(1) .

وقد ذكر ابن كثير الحكمة في تأخير الفتح عامئذ فقال:وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه ÷ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله وكذبوه، فرجع مهموما فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ص: "بل أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم مَنْ يعبده، لا يشرك به شيئاً". فناسب قوله: "بل أستأني أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل". إهـ (2). وقد أورد الإمام البخاري رواية صحيحة تدل على أن النبي ص لم يكن يستهدف من غزو الطائف وحصارها تحقيق فتحها، وإنما أراد أن يكسر شوكة ثقيف، ويجعل للمسلمين اليد العليا عليهم في وصولهم إليها ومحاصرتها في عقر دارها حيث عرفها أن بلادها- الطائف- هي في قبضة المسلمين وأنهم سيدخلونها متى شاءوا ذلك، (3)

---

1) مغازي الواقدي ، 937/3.
2) البداية والنهاية ، 404/4
3) البخاري،الصحيح 5/ 128، 9/ 113.

ويظهر أن النبي ص لم يرغب في أن يشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء منهم لفتح بلدة صغيرة حصينة تحيط بها ديار الإسلام من كل صوب، إذ لم يكن لثقيف رغم عنادها وصمودها إلا الإسلام أو الاستسلام، وإضافة إلى ذلك فقد كان النبي ص يدرك أن ثقيفا إذا تحولت إلى الإسلام فإنها ستكون مادة له وقوة ومنعة فهم أهل شجاعة وفطنة وذكاء وكان يطمع في إسلامهم ويدعو لهم بالهداية.نعم إن الحبيب محمد ص تركهم في آخر الأمر، لا لعجز عن مناجزتهم ولكن رأى أن ثقيفا مآلها الإسلام أو الاستسلام فقد أحيطت بالمسلمين من كل مكان فلماذا يتعرض جيش المسلمين لخسائر كبيرة في حصار مدينة حصينة مآلها إلى السقوط دون أية ضحايا، طال الوقت أم قصر؟وهل بوسع الطائف أن تقاوم طويلا وحدها بعد أن دخلت مكة في الإسلام ودانت المناطق من حولها للمسلمين؟وكيف تصرف إنتاجها الزراعي وكيف تقوم بتجاراتها وكل مواصلاتها مقطوعة؟

تقسيم الغنائم

لقد اقترح النبي ص على أصحابه فك الحصار، فلما رأى حرصهم على القتال سمح لهم بذلك حتى اقتنعوا بعدم جدوى ذلك، فلما أعاد عليهم فكرة فك الحصار ثانية أظهروا الرضا بقراره الحكيم ونفذوه وعادوا مرة أخرى إلى الجعرانة حيث خلفوا غنائم حنين قبل أن يتوجهوا إلى الطائف (1)، وكان النبي قد أخر قسمتها، كما أنه لم يتعجل في قسمتها بعد عودته مع الجيش سوى شيء قليل من الفضة قسمه عند وصوله (2)، ثم انتظر بضع عشر ليلة مؤملا قدوم هوازن وإسلامها ولكنه، حين أبطأت عليه، بادر إلى تقسيم الغنائم (3)، حيث قسمها فبصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب تأليفا لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام، فأعطى مائة من الإبل لأحد زعماء غطفان، ومثلها لأحد زعماء تميم ولستة آخرين من زعماء قريش. وقسم أيضا لاثنين وخمسين رجلا ذكرتهم المصادر من المؤلفة قلوبهم (4)، وقد استمالت هذه القسمة قلوب الزعماء وأتباعهم فاظهروا الرضا بها وزادهم ذلك رغبة في الإسلام، ثم حسن إسلامهم فأبلوا في الإسلام بلاء حسنا وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله (5).

---

1) البخاري،الصحيح 5/ 128- 9/ 113.
2) الحاكم،المستدرك 2/ 121.
3) البخاري ،الصحيح- فتح 8/ 32.
4) ابن هشام ،السيرة 2/ 494- 496، الزرقاني ،شرح المواهب اللدنية 3/ 37، ابن حجر، فتح الباري 8/ 48.
5) ابن عبد البر- الاستيعاب 1/ 103، وانظر: ابن سعد- الطبقات 7/ 37، ابن حجر- الإصابة 1/ 58، ابن حزم- جوامع السيرة ص 248.

وذلك ما عناه أنس بن مالك- ا- بقوله: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» (1)،وعبر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ص ما أعطاني وأنه لا بغض الناس إلي فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي(2). ولقد أوضح النبي ص الحكمة من وراء تقسيمه الغنائم على تلك الصورة التي كان لها أثر سلبيّ على مشاعر بعض المسلمين الذين لم تشملهم القسمة فقال ف:«واللّه إنّي لأعطي الرّجل وأدع الرّجل، والّذي أدع أحبّ إليّ من الّذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل اللّه في قلوبهم من الغنى والخير»(3).

وقال: «إنّي لأعطي رجالا حدثاء عهد بكفر أتألّفهم»(4)

ولقد وجد الأنصار في أنفسهم على رسول الله ص حيث لم ينلهم ما نال غيرهم من الغنائم، مع بلائهم الشديد في هذه الغزوة وفي غيرها من معارك الإسلام الفاصلة.

ولقد كانوا - لكثرة عددهم وشدة بأسهم في الحرب- أعمدة أساسية للجيش النبوي في أية معركة ضد أعداء الإسلام، فهم الذين ناصروا هذا الدين

1) مسلم- الصحيح 4/ 1806، وانظر البخاري- الصحيح 2/ 104، 4/ 73، 8/ 79، ابن حجر- فتح الباري 3/ 336.
2) مسلم، كتاب الفضائل (1806/4) رقم 2313.
3) أخرجه البخارى (312/1 ، رقم 881) .
4) (فتح الباري 51/8).

وقام على كواهلهم، وفتحوا قلوبهم وأبوبهم لكل من جاءهم من إخوانهم المهاجرين الفارين بدينهم، وناضلوا أشد النضال من أجل إقامة هذا الدين وتثبيت دعائمه.

ولقد سجل الله لهم ذلك في قوله تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [سورة الحشر:9]وقال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [سورة الأنفال:74] فهم أنصار الله وأنصار رسوله ص حقا وصدقاً.

ومن هنا لم يكن الرسول الله ص - بحرمانه الأنصار من الغنائم يجهل حقهمأو يحط من قدرهم حاشاه ف من ذلك، وإنما تركهم ثقة منه بقوة إيمانهم وسخاوة نفوسهم، وأعطى الغنائم أناساً يخاف هلعهم وجزعهم ويتألفهم على الإسلام.ويبدوا أن الأنصار خفي عليهم ما أراده رسول الله ص من توزيع الغنائم على ذلك النحو،

فتأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية ،وقالوا: «يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم»، وقالوا:«إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا» (1)،

فراعى - ص - هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فلما دخل سعد بن عباده على رسول الله - ص - فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفئ الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيَ من الأنصار منها شيء. قال: (فأين أنت من ذلك ياسعد) قال: يارسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومكفي هذه الحظيرة؟ قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيَ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ص ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله

1) نقل ابن هشام أنه لما أعطى رسول الله ص ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئا، قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك في قصيدة أوردها (السيرة 3/ 497) ورد فيها قوله:

وأت الرسول وقل يا خير مؤتمن ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا
علام تدعى سليما وهي نازحة ... للمؤمنين إذا ما عدّل البشر
سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دين الهدي وعوان الحرب تستعر

وهي قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا.

ثم قال: يا معشر الأنصار ما قاله بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، إلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشَّاء(1) والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار(2)، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار(3)، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله ص سما وحظا، ثم انصرف رسول الله ص وتفرقوا (4)

---

1)نقل ابن هشام أنه لما أعطى رسول الله ص ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئا، قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك في قصيدة أوردها (السيرة النبوية ، 3/ 497) ورد فيها قوله:

وأت الرسول وقل يا خير مؤتمن ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا
علام تدعى سليما وهي نازحة ... للمؤمنين إذا ما عدّل البشر
سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دين الهدي وعوان الحرب تستعر

وهي قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا.

2) الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، والدثار فوقه، ومعنى الحديث: أن الأنصار هم البطانة والخاصة.

3) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.

4) السيرة النبوية ، 3/ 500.

إن النبي - ص - ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال ، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاه والبعير ، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه ، فنطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا ، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي - ص – الحكيمة في مخاطبة الأنصار(1).

ومن خلال موقف النبي ص من قضية توزيع الغنائم يتضح لنا حقيقتان:

الأولى: دقة نظر رسول الله ص وعمق معرفته بدخائل النفوس البشرية وما يقوم اعوجاجها، حيث أعطى تلك العطايا السخية ومنح تلك المنح الهائلة لأناس يعادونه، وكفار لم يدخلوا في دين الله بعد وآخرين يتألف بهم قومهم لعلهم يهتدون ويسلمون، وكانت النتيجة التي توخها ف من تخصيص هؤلاء الذين تألفهم بهذه العطايا أن أسلموا وحسن إسلامهم وكانوا جنودا صادقين في الدفاع عن الإسلام والانخراط في سلك المهاجرين والأنصار الذين ي ورضوا عنه. وعلى وجه الإيجاز كانت تلك الأعطيات بردا وسلاما على نفوس أولئك النفر وشفاء لما في صدورهم من مرض الضلال وحب المادة

1) المجتمع المدني في عهد النبوة، ص219.

وقد عبروا أنفسهم عن هذا الإحساس وهذا التحول النفسي الخطير حين قال بعضهم "أعطاني رسول الله ص يوم حنين، وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لحب الخلق إلي" وكفى بهذه النتيجة العظيمة دليلا على حسن ذلك التقسيم للغنائم وأنه واقع موقعه، وكيف لا يكون كذلك وهو عمل المعصوم ف الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.الحقيقة الثانية: في هذه الغزوة تجلت قوة إيمان أصحاب الرسول ص و ثباتهم العظيم أمام مغريات المادة و أنهم كانوا كما قيل "يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع"(1).بل إنهم أعظم من هذا بكثير كانت غايتهم - ي- الدفاع عن دينه ونشر الحق، ولم تكن المادة مسيطرة على نفوسهم ولا باعثة لهم على الجهاد كما يزعم ذلك أعداء اله من المستشرقين وأذنابهم، وهذا الموقف العظيم لهم من أعظم الأدلة على طهارة نفوسهم ووضوح هدفهم ونبل مقاصدهم في جهادهم في سبيل الله،

1) ذكر ذلك الجاحظ:"فمن كلامه ف حين ذكر الأنصـــار فقال: "أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع".البيان والتبيين ، 45/2

ولقد رباهم الرسول الله ص التربية الإسلامية الكاملة في معناها، ووثق ف من إيمانهم ووكلهم إلى هذا الإيمان،

وما كان تساؤلهم في مبدأ توزيع الغنائم ولا تعجبهم من ذلك التقسيم لها إلا بسبب خفاء الحكمة عليهم في ذلك حتى بين لهم الرسول ص الحكمة من ذلك فرضوا وسلموا له تسليما ولم يبق في نفوسهم حرج ولا ميل عن الحق، بل كانوا مغتبطين بما أوضحه الرسول ص لهم من أنه وكلهم إلى ما في قلوبهم من الغنى والخير والإيمان واليقين(1).

جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم أثناء توزيعه الغنائم :

وتحدثت المصادر عن نماذج من جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم الصلفةوغير المنضبطة مع النبي ص أثناء توزيعه الغنائم، كما تحدثت عن قوة تحمله ف وصبره الكبير على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، وإدراكه لأحوالهم وما جبلوا عليه من قساوة وفظاظة وأنانية، وقد طمأنهم على مصالحهم وعاملهم على قدر عقولهم وكان بهم رحيما ولهم مربيا ومصلحا.فلما قرر ف العودة إلى الجعرانة فوصلها ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، وأقام بها ثلاث عشرة ليلة ينتظر هوازن لعلها أن تقدم مسلمة فيرد إليها سبيها وأموالها،

1) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ،1 /402

ولما لم تقدم في هذه المدة، شرع ص في توزيع الغنائم حسب ما تقتضيه المصلحة العامة، فوضعها في موضعها اللائق بها، غير أن بعض أهل الزيغ والنفاق عباد الدينار والدرهم انتقد رسول الله ص في صنيعه هذا ونسبه إلى الجور والظلم فخاطب رسول الله ص بلهجة قاسية تنبئ عما انطوت عليه نفسه من الحقد والغل والبعد عن هدي الإسلام وتعاليمه السامية "يا محمد اعدل " فتألم رسول الله ص من ذلك وغضب غضبا شديدا حتى طلب عمر بن الخطاب الإذن منه في قتل هذا المنافق الخبيث، ولكن رسول الله ص منعه من ذلك وقال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي"(1). ذلك أن هذا القائل معدود في الصحابة وله شيعة وأتباع، فالحكمة تقتضي عدم قتله وأن يتركه وما تولى.ومن المواقف التي تدل علي غلظة وجفاء الأعراب ما ورد عن أبو موسى الأشعري حيث قال : كنت عند النبي - ص - وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي - ص - أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: أبشر فقال: قد أكثرت علي من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: رد البشرى، فاقبلا أنتما، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه

1)النسائي في سننه الكبرى ج 5/ ص 31 حديث رقم: 8087 ، الطبراني في معجمه الأوسط ج 9/ ص 34 حديث رقم: 9060

ثم قال: اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة(1)

.وقال عبد الله بن مسعود ا: ... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله - ص - ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت والله لاخبرن رسول الله - ص -. قال: فأتيته، فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله قال: ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً(2).

لقد عرف الأعراب بالجشع والحرص على أتفه متاع الدنيا مع الغلظة وشراسة الطبع والجفاء، لبعدهم عن مواطن الوعي الاجتماعي وتحررهم من قيود النظام وقوانين الحضارة الإنسانية، فالأعراب قوم من العرب يعيشون في البوادي ويتتبعون مواقع القطر وأماكن الخصب، ولا تجمعهم قرية و لا يحكمهم قانون ولا يخضعون لسلطان وقد سجل القرآن على هؤلاء الأعراب أشد الكفر والنفاق وأسوأ الجهل والفظاظة الأمر الذي يؤدي إلى كل تصرف وحشي وكل قول غليظ جاف.

1) البخاري، كتاب المغازي رقم 4328.
2) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم حديث 1062.

قال تعالى: الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [سورة التوبة:97]وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) [سورة التوبة:98]وتاريخ الأعراب في الجاهلية حافل بالهمجية والفوضى وما يتبع من تصرفات نادة عن الذوق والوعي و المسئولية.والإسلام جاء ليستنقذ هؤلاء التعساء وغيرهم من الظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، وقد استمرت الدعوة الإسلامية في طريقها لتخليص هذه النفوس المأفونة من رق الكفر وأغلال الجاهلية فأقبل على هذه الدعوة المحمدية من علم الله فيه الخير فتحرر من تقاليد الجاهلية وانحرافها في الفكر والسلوك في العقيدة و العمل بيد أنّ كثيراً من هؤلاء الجاهليّين ظل شاكاً في حقيقة الدعوة الإسلامية يتربص بها الدوائر يخرج مع المسلمين لا حباً في نصر الدين و إنما للحصول على الغنائم و يبدوا أن فرار الأعراب يوم حنين لا يبعد أن يكون من دوافعه ريب في قلوبهم وشك في إيمانهم، على أنهم ليسوا على درجة واحدة في ذلك.

قدوم وفد هوازن إلى الجعرانة مسلمين:

وبعد قسمة الغنائم جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة (1)وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك(2) اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا (3)لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذرً(4). ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت رسول الله خير المكفولين . فجمع النبي ص المسلمين وخطب فيهم، وقال إنه يريد أن يرد السبي لهوازن «فمن أحبّ منكم أن يطيب (5)

---

1) العشيرة : الأهل أو القبيلة
2) حواضنك: النساء اللاتي أرضعنك، فحاضنة الرسول ص من بني سعد بن بكر وهم من هوازن.
3) ملحنا: وفي رواية مالحنا، يعني أرضعنا، وابن أبي شمر هو الحارث الغساني ملك الغساسنة.
4) البداية والنهاية (352/4).
5) يطيب: والمعنى فمن أحب منكم أن يعطيه عن طيب نفس منه من غير عوض فليفعل. وقال السهيلي: "عوض رسول الله ص من لم تطب نفسه بالرد مما كان بيده واستطاب نفوس الباقين، وذلك أن المقاسم كانت قد وقعت فيهم فلا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم، ويجوز له ذلك قبل المقاسم، كما فعل النبي ص بأهل خيبر حين من عليهم، وتركهم عمالا للمسلمين في أرضهم التي افتتحوها عنوة" (الروض الأنف 281/7).

ذلك فليفعل، ومن أحبّ أن يكون على حظّه حتّى نعطيه إيّاه من أوّل ما يفيء اللّه(1) علينا فليفعل»، ورغم أن المسلمين نادوا: «طيبنا (2) يا رسول اللّه لهم»، فإنه فقال لهم:«إنّا لا ندري من أذن منكم فيه ممّن لم يأذن، فارجعوا حتّى يرفع إلينا عرفاؤكم(3) أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي ص ، فأخبروه أنهم طيبوا(4) وأذنوا» (5). ولقد كان إسلام هوازن نصرا آخر كتبه اللّه للمسلمين سرّ به النبي ص فسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف ووعدهم برد أهله وأمواله عليه وبإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلما، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة. لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي ص فقال:

1) يفيء: أي يرجع إلينا من مال الكفار من خراج أو غنيمة أو غير ذلك، ولم يرد الفيء الاصطلاحي وحده (فتح الباري 178/5).
وقال ابن الأثير: "أراد بما يفيئه الله عليه: الخمس الذي جعله الله له من الفيء خاصة دون الناس، فإنه يعطي كل من أخذ منه شيئاً عوضه من ذلك". (جامع الأصول 409/8).
2) طيبنا: أي رضينا بذلك.
3) عرفاؤكم: وهو القائم بأمر طائفة من الناس، يلي أمورهم و يتعرف أحوالهم، سمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يعرف بها من فوقه عند الاحتياج.
4) طيبوا: بفتح الطاء المهملة وتشديد التحتانية، أي حملوا أنفسهم على ترك السبايا حتى طابت بذلك، يقال طيبت نفسي بكذا إذا حملتها على السماح به من غير إكراه فطابت بذلك.
5) البخاري- الصحيح 3/ 87، 156.

في الناس كلهم بمثل محمد ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

ومتى تشاء يخبر عما في غد أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى

بالسمهري وضرب كل مهند وإذا الكتيبة عردت(1) أنيابها

وسط الهباءة(2) خادر(3) في مرصد فكأنه ليث على أشباله(4)

وقد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفي الذي لحق بالنبي ص في طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى الطائف يدعو إلى الإسلام، ويؤذن من على سطح منزله فرماه بعض المشركين فأصابه، ودفن بناء على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف (5).

---

1) عردت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (313/1).
2) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص689.
3) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
4) السيرة النبوية لابن هشام (144/4).
5) ابن هشام- السيرة 2/ 537- 8، ابن كثير- البداية والنهاية 5/ 29.

إسلام هوازن :

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة بن مسعود أشهرا تشاوروا فيما بينهم على نبذ الخلافات التي كانت بينهم، وعلى أن يتحدوا جميعا على أمر يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وذلك بأن يبعثوا وفدا إلى رسول الله ص للتفاوض معه على الدخول في الإسلام، وذلك أنهم تيقنوا أن لا طاقة لهم بحرب القبائل من حولهم وقد أسلمت وبايعت، وأخذ أمر الإسلام يعلو يوما بعد يوم، وأن دولة الأصنام قد أخذت طريقها في الأفول". قال ابن إسحاق: "ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا". فقد روي أن عمرو بن أمية أخا بني علاج، كان مهاجرا لعبد بن عمرو (لشيء كان بينهم) - وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب - فمشى إلى عبد يا ليل ابن عمرو، حتى دخل داره، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك: "اخرج إلي قال: "فقال عبد يا ليل للرسول ويك! أعمرو أرسلك إلي؟". قال: "نعم، وها هو واقفا في دارك(1)، فقال: "إن هذا لشيء ما كنت أظنه لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك، فخرج إليه، فلما رآه رحب به فقال له عمرو: "إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه كان من أمر هذا الرجل(2)

1) عند الواقدي: "وكان عبد ياليل يحب صلحه ويكره أن يمشي إليه فقال عبد ياليل: "إن هذا شيء ما كنت أظنه بعمرو، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمرا سوءا ما لم يكن من ناحية محمد".

2) يريد رسول الله ص

ما قد رأيت، قد أسلمت العرب كلها(1)، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم". فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينهما، وقال بعضهم لبعض: "أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب (2) ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع، فأتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ص رجلا، كما أرسلوا عروة فكلموا عبد يا ليل بن عمرو بن عمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة، فقال: "لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجالا فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة فبعثوا مع عبد ياليل: "الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة ابن معتب". ومن بني مالك: "عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان، أخا بني يسار، وأوس بن عوف، أخا بني سالم بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة أخا بني الحارث فخرج بهم عبد ياليل وهو ناب(3)

---

1) عند الواقدي: "وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بهم طاقة، وإنما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب! ولا نأمل من أحد منا يخرج شبرا واحدا من حصننا هذا، فانظروا في أمركم! قال عبد ياليل: "قد والله رأيت ما رأيت، فما استطعت أن أتقدم بالذي تقدمت به، وإن الحزم والرأي الذي في يديك" (المغازي 962/3).

2) السرب: المسلك والطريق."النهاية، ج2 ،ص155".

3) ناب القوم: "سيدهم (القاموس المحيط 135/1).

القوم وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة ابن مسعود، لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه،فلما دنوا إلى المدينة، ونزلوا قناة(1)، ألفوا بها المغيرة بن شعبة، يرعى في نوبته ركاب رسول الله ص ، وكانت رعيتها نوبا على أصحابه ف فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيّين، وضبر(2) يشتد يبشر رسول الله ص بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ص ، فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام، بأن يشرط لهم رسول الله ص شروطا ويكتتبوا من رسول الله ص كتابا في قومهم وبلادهم وأموالهم، فقال أبو بكر للمغيرة: "أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ص حتى أكون أنا أحدثه(3)،

---

1) قناة: "بالفتح واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بالعاقول ثم يمضي شمالا في موازاة الحرة، ثم يمر بقبور الشهداء جنوب جبل أحد". معجم البلدان 401/4 والمدينة بين الماضي والحاضر للعياشي ص 490".

2) ضبر الفرس والمقيد يضبر ضبرا وضبرانا جمع قوائمه ووثب". القاموس المحيط74/2

3) وعند الواقدي "فقال أبو بكر: "أقسمت بالله عليك لا تسبقني إلى رسول الله ص بخبرهم حتى أكون أنا أخبره - وكان رسول الله ص قد ذكرهم ببعض الذكر - فأبشره بمقدمهم، فدخل أبو بكر ا على النبي ص فأخبره، والمغيرة على الباب، ثم خرج إلى المغيرة فدخل المغيرة على النبي ص وهو مسرور، فقال يا رسول الله، قدم قومي يريدون الدخول في الإسلام بأن تشرط لهم شروطا، ويكتبون كتابا على من وراءهم من قومهم وبلادهم، فقال رسول الله ص: "لا يسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحدا من الناس إلا أعطيتهم فبشرهم! فخرج المغيرة راجعا فخبرهم ما قال لهم رسول الله ص وبشرهم".

ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله ص ، فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه، فروح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ص ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية(1)، ولما قدموا على رسول الله ص ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده(2)، كما يزعمون". فكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ص حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله ص حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم، وقد كان فيما سألوا رسول الله ص أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات(3) لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ص ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحد بعد مقدمهم، فأبى أن يدعها شيء مسمى، وإنما يريدون

---

1) وعند الواقدي "فكل ما أمرهم المغيرة فعلوا إلا التحية، فإنهم قالوا: "أنعم صباحا ودخلوا المسجد فقال الناس: "يا رسول الله، يدخلون المسجد وهم مشركون؟ فقال رسول الله ص: "إن الأرض لا ينجسها شيء".

2) وفي زاد المعاد نقلا عن موسى بن عقبة فقال المغيرة بن شعبة: "يا رسول الله أنزل قومي علي فأكرمهم، فإني حديث الجرح فيهم، فقال رسول الله ص: "لا أمنعك أن تكرم قومك، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن" وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجير الثقيف، وأنهم أقبلوا من مصر حتى إذا كانوا ببعض الطريق، عدا عليهم وهم نيام، فقتلهم ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله ص فقال رسول الله ص: "أما الإسلام فنقبل، و أما المال فلا فإنا لا نغدر" وأبى أن يخمس ما معه، وأنزل رسول الله ص وفد ثقيف في المسجد، وبنى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وكان رسول الله ص إذا خطب لا يذكر نفسه، فلما سمعه وفد ثقيف، قالوا: "يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله ص ، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه قولهم، قال: "فإني أول من شهد أني رسول الله" (زاد المعاد 596/3).

3) اللات: "كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش".
قال ابن جرير: "وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: "اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا".
وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرءوا اللات: "بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه". (تفسير بن كثير 4/ 253و254)".

بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ص إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ص: "أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه(1)، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه،فقالوا: "يا محمد، فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة(2)". فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ص كتابهم، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن(3)، فقال أبو بكر لرسول الله ص: "يا رسول الله، إني قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن"(4)".

---

1) وعند ابن قيم الجوزية: "فقال كنانة بن عبد يا ليل لرسول الله ص: "هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟" قال: "نعم، أن انتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم"، وأنه سأل رسول الله ص أن يرخص لهم الزنى، والربا والخمر، "فأبى عليهم رسول الله ص ".
وقال: "هي عليكم حرام وتلا الآيات الواردة في ذلك فارتفع القوم فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: "ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يوما كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه، فأتوا رسول الله ص فقالوا: "نعم لك ما سألت، أرأيت الربة - يعنون اللات- ماذا نصنع فيها؟
قال: "اهدموها" قالوا: "هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: "ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك إنما الربة حجر، فقالوا: "إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقالوا لرسول الله ص: "تول أنت هدمها، فأما نحن فإنا لا نهدمها أبدا، قال: "فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها" فكاتبوه (انظر زاد المعاد 596/3-597)، ومغازي الواقدي (967/3-966).

2) عند الواقدي: "فقالوا: "يا محمد، أما الصلاة فسنصلي، وأما الصيام فسنصوم، وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه".

3) وذكر موسى بن عقبة "أن وفدهم كانوا إذا أتو رسول الله خلفوا عثمان ابن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله ص ، فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن، فإن وجده نائما، ذهب إلى أبي بكر الصديق فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله ص حبا شديدا (زاد المعاد 596/3، والبداية والنهاية 31/5) والطبقات الكبرى لابن سعد 508/5).

4) السيرة النبوية لابن هشام 538/2-540، الورض الأنف 332/7-335، وزاد المعاد595/3-597، والبداية والنهاية 29/5-31 وتاريخ الخميس134/2-136، وشرح المواهب 6/4-8 والطبقات الكبرى لابن سعد 312/1-314 و508/5 ومغازي الواقدي 960/3-968).

هدم اللات

قال ابن إسحاق: "فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ص معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: "ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بما له بذي الهدم(1)، فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول(2)، وقام قومه دونه - بنو متعب - خشية أن يرمأو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حسرا(3) يبكين عليها و يقلن:

لتبكين دفاع(4) أسلمها الرضاع(5)

لم يحسنوا المصاع(6)

---

1) بذي الهرم : محل بالطائف (شرح المواهب 9/4) وكذا في البداية و النهاية لابن كثير 33/5".

2) المعول: الفأس العظيمة يقطع بها الصخر، والجمع معاول (مختار الصحاح ص 463).

3) حسر: أي متكشفات". وعند موسى ابن عقبة "وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين - يعني المعول - وقال لأصحابه: "والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا أبعد الله المغيرة قتلته الربة وقالوا لأولئك من شـــاء منكم فليقترب، فقام المغيرة فقال: "والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله فاعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجرا حتى سووها بالأرض وجعل سادنها يقول: "ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع المغيرة قال لخالد: "دعني أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وجمعوا ماءها وبناءها، وبهتت عند ذلك ثقيف، ثم رجعوا إلى رسول الله ص فقسم أموالها من يومه وحمدوا الله على اعتزاز دينه ونصرة رسوله: "(البداية والنهاية 33/5-34، وشرح المواهب 9/4).

4) سميت "دفاع" لأنها كانت تدفع عنهم، وتنفع وتضر على زعمهم ، القاموس المحيط 21/3 .

5) الرضاع : اللئام ، القاموس المحيط 3/ 30

6) المصاع: "المضاربة بالسيوف ، القاموس المحيط 3/ 85

قال ابن إسحاق: "ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس: "وآهالك آهالك(1) فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحليها(2) أرسل إلى أبي سفيان وحليها مجموعة ومالها من الذهب و الجزع(3)، وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ص قبل وفد ثقيف، حين قتل عروة، يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاهم على شيء أبدا فأسلما، فقال لهما رسول الله ص توليا ما شئتما؟ فقالا: "نتولى الله ورسوله، فقال رسول الله ص: "وخالكما أبا سفيان بن حرب" ، فقالا: "وخالنا أبا سفيان بن حرب".فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله ص أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية، سأل رسول الله ص أبو مليح بن عروة أن يقضي عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ص: "نعم، فقال له قارب بن الأسود "وعن الأسود يا رسول الله، ص اقضه - وعروة والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله ص: "إن الأسود مات مشركا،

1) آهالك: "كلمة تقال في معنى التأسف والتحزن (مختار الصحاح ص 34).
2) حليها: "بضم الحاء وكسر اللام والياء المشددة، جمع حلى بفتح فسكون، عطف خاص على عام (شرح المواهب 9/4).
3) الجَزْع والجِزْع: "الخرز اليماني الصيني، فيه سواد وبياض تشبه به الأعين (القاموس المحيط 12/3).

فقال قارب لرسول الله ص: "يا رسول الله لكن تصل مسلما ذا قرابة، يعني نفسه، إنما الدين علي، وإنما أن الذي أطلب به فأمر رسول الله ص أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطاغية فلما جمع المغيرة مالها، قال لأبي سفيان إن رسول الله ص قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دينهما فقضى عنهما"(1)". كتاب الرسول ص لثقيف: قال ابن إسحاق: "وكان كتاب رسول الله ص الذي كتب لهم: بسم الله الرحمن الرحيم: "من محمد النبي، رسول الله، إلى المؤمنين: "عن عضاه(2)وج (3)وصيده لا يعضد، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد، وإن هذا أمر النبي محمّد ص ، وكتب خالد بن سعيد "بأمر الرسول محمّد بن عبد الله، ص لا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ص " (4)".

1) سيرة ابن هشام 2/ 541-542 والروض ألأنف 336/7-337 وتاريخ الطبري 99/3-100 وأسد الغابة 375/4-376 و299/6 والبداية و النهاية 32/5-34 والإصـــابة 219/3 و184/4 ومغازي الواقدي 969/3-973 والطبقات الكبرى لابن سعد 504/5-505"، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، 2 /502

2) عضاه: كل شجر ذي شوك .

3) وج : واد بالطائف ،وسميت "وجا" بوج بن عبد الحق من العمالقة و قيل من خزاعة".

4) ســيرة ابن هشــام 542/2-543 والروض الأنف 337/7، وزاد المعاد 501/3 والبداية والنهاية 34/5 وشــرح المواهب 9/4-10) ، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، 2 /503

أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى:

أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي - ص - فكانت الهزيمة. خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع. أن عدد المشركين، كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين. أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت. كان العدو مهيَّأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم. وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم(1).

1) المستفاد من قصص القرآن (409/2).

عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها أن لا تسرع.

ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ص.

رمية الحصى: فقد أخذ النبي ص حصيات فرمى بهن وجوه الكفارثم قال: انهزموا ورب محمد(1). الإستعانة والإستغاثة بالله عزوجل

1) مسلم بشرح النووي (12/116-117).

فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء. إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة(1) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [سورة التوبة:26].

مواقف إيمانية :

حراسةأنس بن أبي مرثد الغنوي للمسلمين:

لما سمع رسول الله - ص - بان هوازن ومن شايعها من القبائل الأخرى حشدت قواها لضرب المسلمين، اهتم رسول الله - ص - لذلك غاية لاهتمام، وأعد للموقف عدته. فأمر أحد قواده أن يذهب إلى القوم ليعلم له ذلك، وليرصد له وجهتهم وقدراتهم القتالية، زيادة في التثبت في حقيقة الأمر.فذهب ذلك الجندي لمهمته، فدخل في القوم فوجدهم على أتم استعداد لملاقاة المسلمين، قد جمعوا جموعهم بما فيهم النساء والذراري والأموال، فعاد مسرعا، فنقل لرسول الله - ص - خبرهم، فتبسم رسول الله - ص - ، وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله . عن سهل بن الحنظليّة، أنّهم ساروا مع رسول اللّه ص يوم حنين فأطنبوا السّير، حتّى كانت عشيّة، فحضرت الصّلاة عند رسول اللّه ص فجاء رجل فارس

1) السيرة النبوية لابي فارس، ص423. السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، 569/2.

فقال: يا رسول اللّه، إنّي انطلقت بين أيديكم حتّى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول اللّه ص وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء اللّه» ثمّ قال: «من يحرسنا اللّيلة؟» قال أنس بن أبي مرثد الغنويّ: أنا يا رسول اللّه، قال: «فاركب» فركب فرسا له، فجاء إلى رسول اللّه ص فقال (له) رسول اللّه ص: «استقبل هذا الشّعب (1)حتّى تكون في أعلاه، ولا نغرّنّ (2) من قبلك اللّيلة» فلمّا أصبحنا خرج رسول اللّه ص إلى مصلّاه فركع ركعتين ثمّ قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: يا رسول اللّه، ما أحسسناه، فثوّب بالصّلاة (3)، فجعل رسول اللّه ص يصلّي وهو يلتفت إلى الشّعب حتّى إذا قضى صلاته وسلّم قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشّجر في الشّعب فإذا هو قد جاء حتّى وقف على رسول اللّه ص فسلّم فقال: إنّي انطلقت حتّى كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول اللّه ص ، فلمّا أصبحت اطّلعت الشّعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فقال له رسول اللّه ص: «هل نزلت اللّيلة؟» قال: لا إلا مصلّيا أو قاضيا حاجة، فقال له رسول اللّه ص: «قد أوجبت (4) فلا عليك أن لا تعمل بعدها(5).

1) الشعب: الطريق بالجبل وجمعه شعاب.
2) لا نغرّن من قبلك الليلة: أي لا نؤخذ على غرة من الناحية التي أنت بها.
3) ثوّب بالصّلاة: أي أقيمت الصلاة.
4) أوجبت: أي لنفسك الجنة.
5) أبو داود (2501)، وصححه الألباني (2183).

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي - ص - بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته،

وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام، ثم إنه - ص - قال: أبشروا فقد جاء فارسكم. إنها الكلمة التي يستعملها - ف - في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كماً مهملاً، ولارقماً في سجل، ولا بزالاً في آلة يستغنى عنه عند الضرورة: ليؤتى بغيره. إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي(1) في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [سورة الإسراء:70] وفي قول الرسول - ص -: قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها، فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ماقد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات(2). والحديث يدل على اهتمام الرسول - ص - البالغ بمعرفة أعدائه، حيث كان يتابع تحركاتهم ويرقب سيرهم حتى يكون على بصيرة وخبرة بما يدبرون ضده من مؤامرات، وفيه معجزة نبوته حيث أخبر الرسول ص أن ما حشدته هوازن من قوة ستكون غنيمة للمسلمين،

---

1) معين السيرة، ص429.

2) التاريخ الاسلامي (14/8).

وقد وقع ما أخبر به عليه الصلاة والسلام.وفيه منقبة عظيمة لأنس بن أبي مرثد الغنوي، وفضل الحراسة في سبيل الله عز وجل.

وفيه تسابق الصحابة وحرصهم على ما فيه نفع للمسلمين وخدمة لدينهم وامتثال أمر نبيهم - ف - . ودقة التزامهم بأوامره - ف - . فلم يبرح أنس موضعه إلا في حدود الرخصة التي أذن له فيها رسول الله - ص - . وهكذا يكون الإتباع والامتثال بالوقوف عند أوامر الشرع ففيها الفلاح والصلاح.

شجاعة أم سليم يوم حنين:

وفي هذه الغزوة تبرز بوضوح كامل قيمة المرأة في المجتمع المسلم، فإنها فيه عضو فعال، فها هي الأحاديث الصحيحة تصرح بأن المرأة على عهد رسول الله ص تشارك في الحرب، كما أنها في السلم سيدة البيت ومربية أجيال، فليس في الإسلام حظر للمرأة أن تشارك الجيش أعباءه في القتال، بل في ذلك حث لها على سقي الماء ومداواة الجرحى وتمريض المرضى، وأكثر من ذلك فقد قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً(1)، فكان معها فرآها أبو طلحة. فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ص: ماهذا الخنجر؟

1) خنجراً: سكين كبير ذات حدين.

قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ص: يضحك. قالت: يا رسول الله: اقتلمن بعدنا(1) من الطلقاء (2)انهزموا بك(3) فقال رسول الله: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن(4).ولكن كل ذلك مقيد بقيود الإسلام وشروطه التي تهدف إلى صيانة المرأة عن الابتذال والسفور، والخروج عن حد الاعتدال، لتكون لقمة سائغة لكل جسد شهواني، كما تدعو إليه حضارة الغرب والشرق اليوم، ويقلدهم في ذلك أذنابهم من أبناء المسلمين، الذين اغتروا بهذه الدعايات الزائفة، التي يروجها دعاة الباطل والإلحاد، بغية الانجراف في تياراتهم المنحرفة الضالة، التي تهدف إلى خلخلة البناء الإسلامي من أساسه الأول وهو الأسرة، وقوام الأسرة في الإسلام، هو المرأة المسلم، فإذا خرجت وانتهكت الحرمات، وتبرجت تبرج الجاهلية الأولى، فقد وصل دعاة تحرير المرأة إلى مبتغاهم الخبيث(5).

---

1) من بعدنا: من سوانا.
2) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الاولى.
3) انهزموا بك: انهزموا عنك.
4) مسلم، رقم 1809؛ صحيح السيرة النبوية، 563.
5) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 323

وقد استنبطت من غزوة حنين والطائف جملة أحكام منها :

جواز وطء المسبية بعد الاستبراء نزول الآية الكريمة: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (سورة النساء، آية 24).في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل (1).

وقوع العزل في أوطاس:

العزل هو نزع الذكر بعد الإيلاج لينْزل خارج الفرج، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع الإماء خشية أن تحمل الأمة فيمتنع بيعها لأنها تصير بذلك أم ولد(2)".فعن أبي سعيد الخدري أنهم أصابوا سبايا يوم أوطاس، فأرادواأن يستمعوا منهن ولا تحملهن، فسألوا النبي ص عن ذلك فقال: "لا عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله عز وجل قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة" (3)".

---

1) أحمد- المسند 3/ 488.
2) هدي الساري ص: "156، والمصباح المنير للفيومي 485/2.
3) شرح معاني الآثار 33/3

منع المخنثين من الدخول على النساء الأجنبيات

جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة على الأعراض وسدت كل المنافذ التي يخشى منها على أعراض المجتمع الإسلامي، ومن ذلك حماية الأسرة المسلمة من دخول بعض الرجال الذين أطلق عليهم في عرف السلف المخنثون، وهم من خلق متخلقا بأخلاق النساء وزيهن وكلامهن وحركاتهن من غير تكلف، ولا إربة له في النساء أصلا، وهذا الضرب من الرجال شاذ في تكوينه، غير أن هذا الشذوذ خلقي جبلي فيه ولذلك كان بعض هؤلاء يدخلون على النساء بلا إنكار عليهم في ذلك ولكن لما بدر من بعضهم وصف النساء وتحديق النظر في مفاتن المرأة ومحاسنها حظر عليهم الشرع الإسلامي الدخول على النساء منعا للفتنة وسدا للذريعة فعن أم سلمة - ل- قالت : "دخل عليّ النبي - ص -وعندي مخنث(1) فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: "يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان(2)، فقال النبي ص: "ألا أرى هذا يعرف(3) ما هاهنا لا يدخلن عليكن". قالت: "فحجبوه(4)".

---

1) المخنث: "بكسر النون وفتحها هو الذي يشبه النساء في أخلاقه وكلامه و حركاته، ويطلق عليه مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل

2) وعند أبي داود وابن ماجه: "عن أم سلمة أن النبي ص دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها: "إن يفتح الله الطائف غدا دللتك على امرأة تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال ف: "أخرجوهم من بيوتكم" ولفظ ابن ماجه "فسمع مخنثا وهو يقول الخ".
وعنده أيضاً فقال رسول الله ص "أخرجوه من بيوتكم" وقوله (تقبل بأربع وتدبر بثمان فسره البخاري في الحديث بقوله: "قال أبو عبد الله: "تقبل بأربع و تدبر بثمان: "يعني أربع عكن بطنها، فهي تقبل بهن، وقوله تدبر بثمان: "يعني أطراف هذه العكن الأربع لأنها محيطة بالجنين حتى لحقت، وإنما قال بثمان ولم يقل بثمانية وواحد الأطراف وهو ذكر، لأنه لم يقل بثمانية أطراف".

3) وعند أبي داود وأحمد والبيهقي "فقال: "ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكن هذا وحجبوه".

4) (صحيح مسلم: "1716/4 كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب).

النهي عن قتل النساء والضعفاء ومن في حكمهم

من محاسن الإسلام أنه دين الرحمة والعدالة، ومن أبرز ما يؤكد هذه الحقيقة موقفه من الضعفاء والنساء والأطفال في حال النّزال والقتال والتقاء الصفين، لأن هؤلاء المستضعفين ليسوا أهل شوكة ولا مكيدة في الحرب، ولا ذنب لهم في الغالب فيما جره عليهم أهلوهم الكفرة من الصد عن سبيل الله ومحاربة الإسلام، فلا يجوز قتلهم ولا التنكيل بهم، إلا إذا كان الشيخ الهرم محاربا للمسلمين برأيه أو بأي وسيلة تمكنه، أو حاولت المرأة قتل أحد من المسلمين فيجوز قتلها دفاعا عن النفس، وأما الطفل فلا يتصور منه ذلك فهذا النمط من الرحمة والعطف في الحروب والمعارك الشديدة لا مثيل له في أي مبدأ من المبادئ قديما وحديثا، تاريخ الحروب البشرية شاهد صدق بذلك".ولقد أكد رسول الله ص هذا المبدأ وجعله من أهم التوصيات التي يجب أن يجعلها كل أمير جيش أو سرية نصب عينيه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث بريدة بن الحصيب ا قال: " كان رسول الله ص إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاهفي خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا" (1)

1) صحيح مسلم 1357/3 كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، وقد ساق البيهقي جملة من النصوص بعدة أسانيد فيها النهي عن قتل الرهبان والشيوخ والمرضى والصبيان والنساء والوصفاء والعسفاء". (السنن الكبرى 89/9-91).

والشاهد من الحديث قوله "ولا تقتلوا وليدا" وهو نهي والنهي يقتضي التحريم، فيحرم قتل الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان، الذين ليس من شأنهم أن يقاتلوا".وهكذا امتازت الحروب الإسلامية بهذا المبدأ، فلا يقتل إلا من يتأتى منه القتال، أما الذين لا يد لهم في القتال ولا قدرة عليه، فالشريعة الإسلامية تنهى عن قتلهم وترويعهم، وقد جاءت جملة صالحة فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: "مر النبي ص يوم حنين بامرأة مقتولة، فقال: "ألم أنه عن هذا؟".فقال رجل: "أردفتها فأرادت أن تقتلني، فقتلتها، فأمر النبي ص بدفنها" (1)". وعن الأسود بن سريع أن رسول الله ص بعث سرية يوم حنين، فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاؤوا قال رسول الله ص: "ما حملكم إلى قتل الذرية؟ قالوا: "يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال: "أو هل خياركم إلا أولاد المشركين، والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها" (2).

إقامة الحدّ في دار الحرب: الحد في اللغة:"المنع والفصل بين الشيئين، فكأن حدود الشرع فصلت بين الحلال والحرام". وفي الشرع: "هي عقوبة مقدرة شرعا في معصية لتمنع من الوقوع في مثلها". وفي هذه الغزوة جيء برجل إلى رسول الله ص قد سكر

1) مصنف عبد الرزاق 201/5

2) أحمد- المسند 3/ 488، الحاكم- المستدرك 2/ 123، البيهقي- السنن 9/ 130.
أبو داود- السنن 12/ 196- 197، أحمد- المسند 4/ 350، الدارقطني- السنن 3/ 157- 158.

فأمر رسول الله ص من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم وحَثَا ف عليه التراب، ردعا له جزاء ما ارتكب وتطهيرا له مما علق به من دنس المعصية". فعن عبد الرحمن بن أزهر الزهري قال:"رأيت رسول الله ص يوم حنين يتخلل الناس - أي يدخل بينهم - يسأل(1) عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران فأمر من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم، ثم حثا عليه التراب أي: رمى بيده عليه التراب - ثم أتي أبو بكر بسكران فتوخّي(2) الذي كان من ضربهم عند رسول الله ص فضربه أربعين" (3).

تحريم الغلول في الغنيمة

الغلول: "هو اعتداء بعض أفراد الجيش على أموال الغنيمة قبل قسمها وهو من كبائر الذنوب، ولا يقدم عليه إلا ضعيف الإيمان ضعيف النفس يحمله جشعه وسوء طبعه على هذه الخيانة العظيمة لإخوانه المجاهدين معه في سبيل الله ولعظيم خطر الغلول جاءت النصوص في الكتاب والسنة تحذر من الوقوع فيه وتبين أنه ذنب عظيم و جريمة أخلاقية فظيعة،

---

1) وسبب السؤال عن منزل خالد بينه ما رواه عبد الرزاق والحميدي وأحمد وأبو عوانة الجميع من طريق معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: "جرح خالد بن الوليد يوم حنين فمربي رسول الله ص وأنا غلام وهو يقول من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ فخرجت أسعى بين يدي رسول الله وأنا أقول: "من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ حتى أتاه رسول الله ص وهو مستند إلى رحل قد أصابته جراحة فجلس رسول الله ص عنده، ودعا له".
(مصنف عبد الرزاق 380/5-381 ومسند الحميدي 398/2 ومسند أحمد 88/4 و350-351 ومسند أبي عوانة 203/4).
2) "تَوَخَّي": "أي قصد يقال: "توخيت الشيء أتوخاه توخيا، إذا قصدت إليه وتعمدت فعله، وتحريت فيه".
3) (شرح معاني الآثار 156/3). أبو داود- السنن 12/ 196- 197، أحمد- المسند 4/ 350، الدارقطني- السنن 3/ 157- 158.

قال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [سورة آل عمران:161]

نتائج غزوة حنين والطائف:

انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي - ص - لمشركي العرب. رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، حصول الأنصار على وسام عظيم وهو شاهدة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله - ص - إلى المدينة. انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا. توسعت الدولة الإسلامية وأمتدّ نفوذها وأصبح لرسول الله - ص - أمراء بمكةو على قبيلة هوازن وصارت تلك الأماكن جزء من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية،

وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوث دعوية بدون خوفأو وجل من أحد وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة(1).

تنظيم استيفاء الصدقات والجزية:

شرع الرسول ص بعد عودته إلى المدينة في أواخر ذي القعدة في تنظيم الإدارة والجباية، وكان ف قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلمهم القرآن، وكان رزق عتاب ثلاثين درهما في الشهر (2). وفي مطلع المحرم من العام التاسع وجّه الرسول ص عماله على المناطق المختلفة. فبعث:

بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار . - وعباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة

ورافع بن مكيث إلى جهينة. - وعمرو بن العاص إلى فزارة.

1) الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية ، 961/2

2) ابن حجر- الإصابة 2/ 451، البخاري- التاريخ الكبير 7/ 54، خليفة بن خياط- التاريخ ص/ 88.

والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.

وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب. - وابن اللّتبيّة الأزدى إلى بني ذبيان.

ورجلا من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم (1)

والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء. - وزياد بن لبيد إلى حضرموت.

وعدي بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد. - ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة.

والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد (2).

والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم (3).

وكان ف يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللّتبيّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل(4):

---

1) الواقدي- المغازي 3/ 973، ابن سعد- الطبقات 2/ 160.
2) ابن هشام- السيرة 4/ 328.
3) ابن هشام- السيرة 4/ 328.
4) منصور الحرابي، الدولة العربية الإسلامية، ص43.

هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله ص على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟

والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراَ له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت» مرتين(1) وكان يقول أيضا: «أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقًا فما أصاب بعد رزقه فهو غلول»(2).

1) مسلم، باب محاسبة الإمام عماله رقم 1832،صحيح السيرة،ص 579.
2) التراتيب الإدارية للكتاني،(265/1).